الفصل الثانى

الشيخ مصطفى عبد الرازق والتصوف

تمهيد :

يحتل الشيخ مصطفى عبد الرازق (1885 تقريبا - 1947م) مكانة كبيرة فى فكرنا المعاصر . ولا غرابة فى هذا فهو يمثل واحدا من إشعاعات مدرسة الإمام محمد عبده (ت 1905م) . تلك المدرسة التى تركت أثرا هائلا فى حياتنا المعاصرة عند عدد غير قليل من المفكرين والمصلحين . ولقد كان من هؤلاء شيخنا مصطفى عبد الرازق . وإذا كان الأستاذ الإمام محمد عبده يمثل فكرا تنويريا خصبا تجلى فى نظراته الإصلاحية فى شئون الدين والمجتمع وقضاياه المختلفة ، فإن هذا الحكم يصدق وإلى حد كبير على شيخنا مصطفى عبد الرازق الذى ارتبط به ارتباطا كبيرا ، وكان من أخلص تلاميذه له فى حياته وبعد مماته ، فقد تشربت روحه بمبادئه وأفكاره ، وصار قدوته فى علمه وسلوكه[1].

ولقد نهج الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق نهج أستاذه الإمام محمد عبده فى التوفيق بين أصول الإسلام ومعطيات الحضارة الغربية . وحاول شيخنا أن يقدم من خلال علمه وثقافته صورة دقيقة للإسلام الصحيح الذى يجمع بين روح النظر العقلى وصفاء الوجدان أو البصيرة، وذلك من منطلق فهمه لعقيدة الإسلام وشريعته ، التى تعطى اهتماما للإنسان فى جانبيه المادى والروحى . انطلاقا من جمع الدين الإسلامى

---

(1) انظر فى ذلك على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق - مطبعة دار المعارف - القاهرة 1957 م ص 30-31 وأيضا أنظر لأستاذنا الدكتور عثمان أمين : أعلام الفكر الإسلامى المعاصر - دار الثقافة والنشر والتوزيع - القاهرة 1989م ص 138 .

الحنيف بين الدنيا والآخرة على صعيد واحد . وبشرط أن يفهم الدين على وجهه الصحيح .

ولم تكن هذه المهمة شيئا صعبا بالنسبة لشيخنا مصطفى عبـــدالرازق . فقد أهلته تربيته وتعليمه الدينى فى الأزهر ، وما أتيح له من ثقافة متنوعة أن يقوم بهذه المهمة خير قيام حين تيسر له منذ وقت مبكر أن يجمع فى تعليمه بين العلم الدينى (علوم الشريعة) والعلم الحديث لما سافر إلى فرنسا عام 1909 وحتى عاد إلى مصر عام 1915 فجمع بالتالى بين القديم والحديث والإسلامى وغير الإسلامى والشرقى والغربى ، ثم تمثل كل أولئك فى قلبه الكبير وعقله الراجح وخرج به إلى الناس فى صورة لا عهد لهم بها من قبل صورة من صنع مصطفى عبد الرازق نفسه[1].

وقد انعكس تأثير هذه الفترة وما سبق أن هضمه شيخنا من أفكار شيخه الأستاذ الإمام محمد عبده على كثير من آرائه الدينية والفكرية . بل إن حرص مصطفى عبد الرازق على أن يدلى بدلوه فى كثير من قضايا المجتمع وشئونه كانت امتدادا لاهتمامات أستاذه الإمام محمد عبده فى نظراته الإصلاحية . وكان تأثير الشيخ مصطفى عبد الرازق فى حياتنا الفكرية كبيرا رغم قصر المدة التى عاشها . ويكفى أنه ترك مدرسة فكرية متميزة كان من ثمارها مجموعة من أبرز المشتغلين بالفكر الفلسفى فى مصر . أخذوا على عاتقهم إحياء الدرس الفلسفى فى مجال الفلسفة

---

(1) عثمان أميـــن (الأستاذ الدكتور) : من أعلام الفكر الإسلامى المعاصر ص 138 وما بعدها .

الإسلامية من منطلق منهج مصطفى عبد الرازق فى تدريسها . وتركوا أيضا إنتاجا خصبا فى مجال التأليف يكشف عن أنهم كانوا خير خلف لخير سلف[1].

ولما كان فكر شيخنا مصطفى عبد الرازق يمثل فكرا خصبا ومتعدد الجوانب بما تركه من آراء إصلاحية فى مجال الفكر الدينى ومن آراء جديرة بالتقدير فى مجال حياتنا الفكرية والاجتماعية ، بالإضافة إلى مشاركته الفعالة فى كثير من مجالات العمل الاجتماعى والثقافى ، فإن المرء لا يملك إلا أن يختار جانبا من هذه الجوانب فى هذه المناسبة ليكون مجالا للبحث . ومن ثم شئت أن يكون بحثى عن موقف مصطفى عبد الرازق من التصوف .

ولا نزاع فى أن قضية التصوف تمثل واحدة من القضايا التى احتدم حولها الجدل طويلا فى فكرنا الإسلامى حدث ذلك قديما بل واستمر ذلك الجدل حتى وقتنا الحاضر . ويكفى شاهدا على هذا مراجعة مواقف الأقدمين من الفقهاء والمتكلمين ومواقف المعاصرين من المصلحين والمفكرين الدينيين بل وكذلك مواقف المشتغلين بالفكر الفلسفى فى عالمنا الإسلامى. وهى مواقف رغم تباين بعضها أحيانا مع البعض الآخر ، إلا أن أغلبها يكشف عن حد معقول من الاتفاق حول مشروعية التصوف فى الإسلام .

---

(1) انظر فى هذا الصدد بحث أستاذنا الدكتور أبوالوفا التفتازانى بعنوان مدرسة مصطفى وذلك فى الكتاب التذكارى عن الشيخ مصطفى عبدالرازق مفكرا وأديبا ، إصدار المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة 1982 ص 5 وما بعدها .

ولهذا السبب فإن الإبانة عن موقف مصطفى عبد الرازق من التصوف يمثل فى اعتقادى مسألة مهمة إذا أخذنا فى الاعتبار أن شيخنا سليل مدرسة الإمام محمد عبده وحينئذ فقد يحق أن نتساءل هل جاء موقفه مباينا تماما لموقف شيخه الأستاذ الإمام محمد عبده ؟ أم أن موقفه جاء متوافقا معه حول قضية التصوف ؟ وبعبارة أوضح هل يمكن القول أن هناك مشروعية وقبولا للتصوف عند شيخنا مصطفى عبد الرازق ؟ وإذا كان ذلك كذلك فما هى حدود تلك المشروعية وجدواها فى حياتنا المعاصرة ؟؟

وفيما يلى تفصيل القول فى تلك المسألة بالقدر الذى يكشف عن حقيقة موقف شيخنا مصطفى عبد الرازق

أولاً : التصوف نشأته وأصالته فى الإسلام

وأول ما يتعين البدء به أن التصوف عند شيخنا مصطفى عبد الرازق علم أصيل النشأة فى الإسلام وكان فى أصل نشأته نتيجة طبيعية للتطور الذى لحق التفكير الدينى عند المسلمين فى هدى من أصول الإسلام عقيدة وشريعة . وقد تحددت معالم هذا العلم موضوعا ومنهجا وغاية لما بدأ عصر التدوين وظهرت المصنفات فى العلوم المختلفة داخل البيئة الإسلامية . أما قبل ذلك فلم يكن العلم موجودا على نحو ما تحددت معالمه بهذا الشكل . فقد كان الإقبال على الدين والزهد فى الدنيا غالبا على المسلمين فى صدر الإسلام ، فلم يكونوا فى حاجة إلى وصف يمتازون بـــه ، ولم يتسم أفاضلهم فى الجيل الأول بنسبة سوى صحبة رسول الله ، إذ لا أفضلية فوقها ، فقيل لهم الصحابة ، ولما أدركهم الجيل

الثانى سمى من صحب الصحابة بالتابعين[1]. ولأجل هذا فليس من قبيل الأهمية فيما نحن بصدده البحث عن أصل كلمة التصوف وتعليلها كاسم ارتبط بفئة من الناس هم الذين يقال لهم الصوفية ، كما فعل بعض الذين صنفوا لهم المصنفات . إذ الغالب كما يرى شيخنـــا مصطفى عبد الرازق أن الكلمة –التصوف – ترتد إلى الصوف . ومن ثم فلا تعدو أكثر من إشارة إلى لبس الصوف عند القوم ولا أكثر من ذلك[2] .

فالبحث عن مفهوم التصوف فى تلك الفترة المبكرة لم يكن قد تبلور تماما أو تحددت ملامحه رغم ظهور كلمة صوفى قبل القرن الأول الهجرى . فقد أطلق لفظ الصوفى والمتصوف بادئ الأمر مرادفا للزاهد والعابد والفقير ، ولم يكن لهذه الألفاظ معنى يزيد عن شدة العناية بأمر الدين ومراعاة أحكام الشريعة ، فإن الفقر والزهد ولبس الصوف مظهر ذلك[3].

والحق أن ما يقرره شيخنا إشارة دقيقة فى رأينا لأن ظهور كلمة التصوف وكلمة صوفى فى تلك الفترة المبكرة لا ينهض دليلا على بزوغ التصوف كتيار أو علم محدد الملامح والقسمات ، لأن الزهد لا يعنى تماما مفهوم التصوف ، إذ التصوف كما يقول ابـــن الجـــوزى (ت597هـــ)

---

(1) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصـــوف ، دائرة المعارف الإسلامية، طبعة دار الشعب ، المجلد التاسع ص 337 .

(2) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 338-341 .

(3) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 341 .

مذهب يزيد على الزهد[1] يدل على ذلك أن الزهد لم يذمه أحد كما يقول ولا كذلك التصوف[2]. وبغض النظر عما فى قول الجوزى من تحامل على الصوفية ، إلا أن التصوف حقيقة يزيد على معنى الزهد بل ومعنى الفقر ، أو بالأحرى هو فوق الزهد وفوق الفقر[3]. وإن لم يمنع هذا من أن الفقر كما يقول السهروردى البغدادى (ت 632هـ) أساس التصوف وبه قوامه[4].

فلما بدأ المسلمون البحث فى أمورهم الدينية على نظام علمى ، ونشأ التدوين فى العلوم وتحددت موضوعاتها وغاياتها ، كان أول ما توجهت إليه الهمم وانصرفت إليه الأفكار علم الشريعة ، بمعنى الأحكام العملية ، حتى لحسب الناس أن الاشتغال بهذا العلم كما يقول شيخنا مصطفى عبد الرازق هو غاية الدين[5]. وفى ذات الوقت تطور معنى التصوف إلى ما يناسب الكمال فى الدين ، بحيث يحقق هذا الكمال الغاية التى يطمح إليها الدين وتحقيقها فى الجوارح والقلوب . وحينئذ فقد أدى هذا الطموح إلى نشأة علم دينى إلى جانب العلم الفقهى يهتم بتلك الناحية نعنى العبادة وآثارها فى القلوب . ولعل فى هذا ما يبرر الصلة الوثيقة بين

---

(1) ابن الجوزى : تلبيس إبليس – مكتبة النور الإسلامية – بدون تاريخ – ص 165 .

(2) ابن الجوزى : المصدر السابق نفس الصفحة .

(3) السهروردى البغدادى : عوارف المعارف – دار الكتاب العربى – الطبعة الثانية 1983 م ص 55 .

(4) السهروردى البغدادى : المصدر السابق نفس الصفحة .

(5) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 341 .

الفقه والتصوف[1]. ولأجل هذا أسموه علم الباطن وسموا من عداهم أهل الظاهر وأهل الرسوم[2]. وقد فطن ابن خلدون (ت 808هـ) مبكرا إلى هذا فقال : " فلهذا اختص هؤلاء القوم – الصوفية – بهذا النوع من العلم الذى ليس يوجد لغيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه"[3].

ويمكن القول أن هذه النظرة إلى الشريعة على النحو السابق ، كانت سببا فى بلورة العلم الجديد نعنى علم التصوف . فكان الغالب عليه منذ أوائل القرن الثالث الهجرى هو العناية بالجانب الأخلاقى ودقائق النفس والكشف عن عيوبها ومحاولة الارتقاء بأفعالها على نحو يحقق لها الكمال مع الحق والخلق وكما هو موجود فى مصنفات الصوفية الأوائل . ومن ثم كان التصوف فى هذا الدور كما يقول شيخنا مصطفى عبد الرازق عبارة عن الأخلاق الدينية ومعانى العبادة ، الأمر الذى يعنى أن أول خطوات التصوف فى سبيل التكوين العلمى كانت عبارة عن نشأة علم الأخلاق الإسلامى[4] ، وفى رأى مصطفى عبد الرازق أن التصوف حتى هذه الفترة يمثل بوضوح علم الأخلاق الإسلامية ، الأمر الذى يعنى أنه علم أصيل لا أثر فيه للعناصر الوافدة من خارج البيئة الإسلامية ولا لجهد المفكرين فى فهم معانيها وآثارها واتصالها بالقلوب[5] .

.

---

(1) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق نفس الصفحة.
(2) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 342 .
(3) ابن خلدون : المقدمة – طبعة دار الشعب – ص 440 .
(4) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 342 .
(5) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق نفس الصفحة .

لكن مسيرة التصوف لم تتوقف عند هذا الجانب الخلقى ، ولم يظل التصوف على صورته الأولى بوصفه علما للأخلاق الإسلامية . فسرعان ما لحقه التطور ، لما امتدت عناية المهتمين به والمصنفين فيه إلى العناية بالمعرفة . ويكشف لنا مصطفى عبد الرازق هذا التطور الذى وسم التصوف بعد القرنين الثالث والرابع الهجريين فيقول :" ... ثم اتسعت أنظار الباحثين فى العلوم الدينية ودقت وترامت هممهم إلى الكلام فى أصول الدين بعقولهم ولطفت أذواق المراقبين منهم لعبادات وحركات القلوب فأخذ التصوف يتسامى إلى نظرية خاصة فى المعرفة فى سبيل الوصول إليها ، وهذه النظرية – على حد قوله – على ما بينه الغزالى فى إحياء علوم الدين هى السعادة التى وعد الله بها المتقين هى المعرفة والتوحيد ...[1].

لكن الصوفية فى تلك الفترة قد امتدت عنايتهم كذلك إلى المعرفة جنبا إلى جنب عنايتهم بالأخلاق أو السلوك يدلنا على هذا قول الطوسى (ت 378 هـ) عن التصوف " أنه علم القلوب وعلم المعارف وعلم الأسرار وعلم الباطن وعلم التصوف وعلم المعاملات أى ذلك شئت فمعناه واحد "[2]. وعلى هذا يمكن القول أن التميز الحقيقى للتصوف فى هذه الفترة – القرنين الثالث والرابع – أنها قد شملت الأمرين معا. نعنى الأخلاق والمعرفة .

---

(1) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق نفس الصفحة

(2) الطوسى : اللمع ، تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود وطه عبد الباقى سرور – دار الكتب الحديثة – القاهرة 1380هـ / 1960م ص 457 .

وفى رأينا أن تلك مسألة مهمة لأن التصوف يظل فى حقيقته طريقا للعرفان . ولسوف نرى بعد قليل أن تميز التصوف فى هذا الجانب هو الذى يراه مصطفى عبد الرازق خصوصية للتصوف ، لأن حاصل التطور الذى لحق التصوف فى تلك الفترة يعنى شيئا جديدا هذه المرة . فبينما كان التصوف بوصفه علما للأخلاق الإسلامية يقف فى الطريق المقابل لعلم الفقه الذى انحصرت همم أصحابه إلى الكلام فى العبادات والمعاملات ولا أكثر من ذلك صارفين النظر عن عملها وآثارها فإن التطور الذى لحق التصوف بعد ذلك جعله مقابلا لطريق المتكلمين والفلاسفة نعنى أهل النظر العقلى . وهذا هو الذى قصده شيخنا مصطفى عبد الرازق لما حدد هذا التطور الذى لحق بالتصوف فقال : "... كان التصوف طريقا من طرق العبادة يتناول الأحكام الشرعية من ناحية معانيها الروحية وآثارها فى القلوب ، فهو يقابل علم الفقه ، الذى يتناول ظواهر تلك العبادات ورسومها ، ثم انتقل التصوف فأصبح طريقا للمعرفة يقابل طريق أرباب النظر من المتكلمين[1] .

وربما بسبب هذا التميز الذى لحق بمفهوم التصوف فى تلك الفترة صار - التصوف- مقابلا لعلم الكلام وأصبح المنخرطون فيه بحسب طريقتهم فى مفهومها الجديد بمثابة فرقة لها خصوصيتها فى مقابل غيرها من الفرق الكلامية فى الإسلام ، والتى أصبح لكل منها أصولها العقدية . وهذا ما لاحظه شيخنا مصطفى عبد الرازق من استقرائه لمقالات أصحاب علم الكلام والباحثين فى أصول علم العقائد ، فجلهم يهملون ذكرها -

---

(1) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 344 .

الصوفية – باستثناء فخر الدين الرازى (ت 606 هـ) الذى اعتبرهم فرقة بحسب منهجهم يدل على هذا قوله " .. اعلم أن أكثر من قص فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ ، لأن حاصل قول الصوفية ، ولأن الطريق إلى معرفة الله هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية وهذا طريق حسن .. "[1].

وتلك ملاحظة جديرة بالاهتمام لأن كل المؤلفات الموضوعة فى أصول الفرق الإسلامية لا يجد فيها شيخنا ذكرا للصوفية ، على وجه يشعر بأنها من أصول فرق الإسلام ، اللهم إلا ما ورد فى كتاب الفهرست لابن النديم (ت 385هـ) وما ذكره الغزالى (ت 505هـ) فى كتابه المنقذ من الضلال . فإذا استثنينا هذين المؤلفين ، فإن سائر المؤلفين لم يرد فى كلامهم بيانا لآراء الصوفية أو ما يجعلها عندهم فى عداد الفرق الأصلية أو الفرعية ، مثلما فعل الشهرستانى (ت 548 هـ) فى الملل والنحل وعبدالوهاب الشعرانى (ت 973هـ) فى رسالة له بعنوان مقدمة نافعة لمن يخوض فى العقائد[2] .

وهناك من المؤلفين فى الفرق الإسلامية من سرد أقاويل الصوفية ومذاهبهم ، ولكن دون أن يعدهم فى أصول الفرق الإسلامية ، ولا أن ينسبهم إلى فرقة معينة من الفرق الأصلية كالأشعرى (ت 324 هـ) فى

---

(1) الرازى (فخر الدين) : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين . تحقيق الدكتور على سامى النشار ، تقديم الشيخ الأكبر مصطفى عبدالرازق – دار الكتب العلمية – بيروت 1982 ص 72 .

(2) مصطفى عبدالرازق : الصوفية والفرق الإسلامية – بحث ألقى فى مؤتمر تاريخ الأديان بمدينة ليدن بهولنده – 1351 هـ / 1932 م وضمنه الدكتور على سامى النشار تحقيقه لكتاب اعتقادات فرق المسلمين

كتابه مقالات الإسلاميين ، وكذلك فعل ابن حزم (ت456هـ) فمسلكه عين مسلك الأشعرى وإن كان كلامه كما يقول شيخنا لا يخلو من اضطراب[1].

لكن الملاحظ أيضا أن بعضا من كتاب الفرق يرون كما يقول شيخنا أن التصوف مذهب من مذاهب الفرق الناجية أهل السنة والجماعة على نحو ما ذهب الاسفرائينى (ت471هـ) فى كتابه التبصير فى الدين ، وعلى نحو ما نجد عند عباس بن منصور السكسكى مؤلف كتاب البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان[2]. ولهذا يستخلص شيخنا نتيجة مهمة مفادها أن جل هؤلاء المؤلفين الذين حصروا الفرق الإسلامية قد عنوا غالبا بالنظر إليهم من ناحية نجاتهم أو هلاكهم متأثرين كما يقول شيخنا بأمرين أحدهما الحديث " ستفرق أمتى اثنتين وسبعين فرقة أو ثلاثا وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة "[3]، والثانى الميل إلى المنازع الصوفية أو بغضهـا .

---

(1) مصطفى عبدالرازق : الصوفية والفرق الإسلامية ص 8 .

(2) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 9-10 وجـدير أن كتاب البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان قد حققه أخيرا خليل أحمد إبراهيم - دار التراث العربى- القاهرة 1980 م : فلزم الإشارة إلى ذلك .

(3) - حديث ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحدة أخرجه أبو داود والترمزى وقال حسن صحيح وابن ماجه وابن حيان والحاكم فى صحيحيهما عن أبى هريرة مرفوعا . ويروى الحديث بروايات مختلفة . انظر للشيبانى تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث - مكتبة صبيح - القاهرة 1963 ص 75 ، وأيضا الشوكانى : الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة - تحقيق عبدالرحمن بن يحيى المعلمى - وصححه

لهذا السبب بالذات كان الفخر الرازى هو الوحيد الذى تدارك هذا النقص عند كتاب الفرق كما لاحظ بحق شيخنا مصطفى عبد الرازق . وهى ملاحظة جديرة بالاهتمام لا لأن الرازى جعل الصوفية فرقة كغيرها من الفرق وفقط ولا أكثر من ذلك وإنما فرقة بحسب منهجهم الذوقى بل هى فى ذات الوقت عنده - الرازى - فرقة أصلية تنقسم بدورها إلى فرق فرعية هى عنده ست فرق فرعية ولذلك أفرد لها الرازى بابا فى كتابه[1].

وصنيع الرازى مهم عند شيخنا مصطفى عبد الرازق ، وهو كذلك فى اعتقادى لأن مؤلفه قد جعل الصوفية فرق بمنهجهم الذوقى فتميزوا به عن غيرهم من طوائف المتكلمين على تفاوت حظهم من النظر العقلى الخالص تارة أو السمع والعقل تارة أخرى . ولهذا استحسن شيخنا ما فعله الرازى بدليل قول مصطفى عبد الرازق صراحة " .. وعندى أن هذا الفصل عظم الشأن من وجهين أما أولهما فهو أنه فيما نعلم فذ فى محاولته التعريف بالمذهب الصوفى بجملته باعتباره مذهب فرقة من الفرق

عبدالوهاب عبداللطيف - طبعة مصورة عن دار الكتب العلمية - بيروت ص 502 وأيضا الزرقانى : فى مختصر المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة تحقيق الدكتور محمد لطفى الصباغ - المكتب المصرى - القاهرة 1983 م ص 17 .

(1) مصطفى عبدالرازق : الصوفية والفرق الإسلامية ص 12 ، وانظر صنيع الرازى فى تقسيمه لفرق الصوفية من هذه الحيثية - المنهج الذوقى فى كتابه اعتقادات فرق المسلمين فى الباب الثامن فى أحوال الصوفية ص 72-74 .

الإسلامية الأصلية ، وثانيهما كما يقول أيضا فذ فى محاولته – الرازى – حصر الفرق الفرعية لهذه الفرقة الأصلية..."[1].

فإذا تبينا أن الرازى قد جعل الصوفية فرقة بمنهجهم الذوقى أدركنا أهمية قبول شيخنا لهذه الفكرة عند الرازى ، فقد استوقفته طويلا ، ومن ثم نتبين معه أهمية هذا الجانب العرفانى عند الصوفية ، ولسوف نرى بعد قليل أنه – العرفان – يلازم الولاية والأولياء عنده .

وإذا كان التطور الذى لحق بالتصوف فى القرن الخامس الهجرى وربما قبله بقليل قد جعله طريقا مقابلا لطريق المتكلمين ، فإن مسيرة التطور الذى لحق بالتصوف فى القرنين السادس والسابع الهجريين هى التى جعلته عند شيخنا مصطفى عبد الرازق أقرب ما يكون إلى الفلسفة فقد توجهت همم أصحابه فى تلك الفترة إلى الكلام فى حقائق الموجودات العلوية والسفلية على وجه لا يفهمه من لم يشاركهم فى أذواقهم ومواجيدهم[2]. ولعل إشارة شيخنا مصطفى عبد الرازق تنصرف كما هو معلوم إلى متفلسفة الصوفية من طراز السهروردى الاشراقى المقتول (ت 587هـ) ومحيى الدين ابن عربى (ت 638هـ) وابن الفارض (ت362هـ) وعبد الحق ابن سبعين (ت 669هـ) وغيرهم ممن ساروا على نهجهم فهؤلاء قد امتزجت فعلا عندهم الفلسفة بالتصوف واختلطا حتى ليصعب الفصل أحيانا بينهما مع تفاوتهم فى حظهم من هذا النظر الفلسفى .

---

(1) مصطفى عبدالرازق : الصوفية والفرق الإسلامية ص 15-16 .

(2) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 345 .

ولربما بسبب هذا الخلط تسبب هذا اللون من التصوف عند أصحابه لهجوم الفقهاء ورجال الدين وذلك من جراء غموض ألفاظهم وإشاراتهم وما توهمه ظواهرها من الضلال والزيغ ، ولقد اضطر ابن عربى - كما يقول شيخنا مصطفى عبد الرازق - لكى يضمن لنفسه بعض السلامة والعافية أن يضع شرحا لديوانه ترجمان الأشواق يبين فيه مقاصد كلامه ومراميه ويظهر ما خفى من معانيه ويعين ما التبس منها لئلا يتأولها المتأولون على غير الوجه الذى أراده[1]

ويمكن القول أن التطور الذى لحق بالتصوف فى القرنين السادس والسابع ، وما قدمه الممثلون له من نظريات فى الوجود - وجود الله والعالم والإنسان وما شاكل ذلك وما انتهوا إليه من نظريات كوحدة الوجود أو الوحدة المطلقة هو الذى سهل التدانى كما يقول شيخنا مصطفى عبد الرازق بين التصوف والفلسفة ومن ثم تفتحت له الأبواب فى هذا الدور على حد قوله [2] .

وتأسيسا على ما سبق ، فإذا كان الصوفية أشبه ما يكونون بفرقة أضافها الرازى إلى عداد الفرق الإسلامية وذلك بحسب طريقتهم ، فإن متفلسفة الصوفية بحسب الموضوعات التى خاضوا فيها والنظريات التى انتهوا إليها صاروا قريبين فى صلتهم بالفلسفة من هذا الوجه ، ولا أكثر من ذلك نعنى زاوية الكلام فى الوجود .

---

(1) مصطفى عبدالرازق : مقدمة كتاب ابن الفارض والحب الإلهى للدكتور محمد مصطفى حلمى - طبعة دار المعارف - القاهرة 1971 ص 7 .

(2) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 347 .

وعلى هذا فإن الصلة فى الحالتين نعنى صلة التصوف بالفلسفة أو غيره من العلوم كصلة علم الكلام بالفلسفة لا ينبغى أن تؤخذ بإطلاق فى رأينا وإلا صار علم الكلام فلسفة وكذلك التصوف رغم تمايز العلمين موضوعا وغاية بل ومنهجا . ولربما كانت هذه الصلة قد تحددت فقط بحكم التطور الذى لحق الاثنين – علم الكلام والتصوف – فى مراحلهما المتأخرة فقط فقد أصبحا قريبى الشبه من العلوم الفلسفية[1].

لكن التطور الذى لحق بالتصوف وجعله وثيق الصلة بالفلسفة لم يفقده أصالته الإسلامية فقد ظل التصوف محتفظا بها رغم هذا التأثير . ودفاع عن شيخنا مصطفى عبد الرازق عند هذه النقطة جدير أن يوجه أنظارنا نحن الباحثين فى مجال الفكر الإسلامى والتصوف بوصفه داخلا فى نسيجه . ويشير مصطفى عبد الرازق إلى ذلك فيقول :" وإذا كان غير منكور أن التصوف فى هذا الدور لم يخل من تأثر ببعض ما وصل إلى المسلمين من معارف الأمم القديمة ، فإنا لا نزال نجد الصبغة الإسلامية غالبة فى هذا العلم الوليد ، ولا نستطيع أن نقول مع جولدتسهير وكذلك يجب عند النظر فى التصوف تاريخيا تقدير النصيب الهندى الذى ساهم فى تكوين هذه الطريقة الدينية المتولدة من المذهب الأفلاطونى الجديد.."[2].

إن قول شيخنا مصطفى عبد الرازق يضعنا أمام مشكلة المنهج العلمى بكل مقوماته فى إطار الدرس الفلسفى الدقيق ولربما كان فضل

---

(1) مصطفى عبدالرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص 75 .

(2) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 345 .

شيخنا هو اهتمامه بأن يضع منهجا دقيقا لدراسة الفلسفة الإسلامية . وهو فيما نحن بصدده يؤكد هذا المنهج . خاصة وأن بحوث التصوف كما يقول تحتاج إلى عناء وجهد وإلمام بمصطلحات القوم التى يريدونها ، ويتطلب الأمر إطراح الهوى والعدل فى الحكم ، وأن ينزل الباحث حييا عن بعض نظراته المادية[1]. وهذا هو ما فعله مصطفى عبد الرازق فيما وقف عليه من آراء المستشرقين ففندها فى غير تحيز وبسببه صار دارسا أصيلا للفلسفة الإسلامية وصاحب فكر متميز فى إطارها[2].

وصفوة القول أن التصوف علم أصيل النشأة فى الإسلام سواء نظرنا إليه فى مرحلته الأولى بوصفه علما للأخلاق الإسلامية أو نظرنا إليه فى تطوره فى التصاقه بالفلسفة فهو فى الحالتين يظل موصوفا بهذا الوصف . وهو الأمر الذى أكد عليه شيخنا ودافع عنه بحرارة من خلال منهجيته فى البحث .

لكن مسيرة التصوف فى عصوره المتأخرة لم تجد قبولا عند شيخنا فقد فطن إلى ما لحقه من تدهور وانحطاط سواء على مستوى الممارسة الحقيقية من جانب أتباعه أو فى مجال الإبداع والتأليف . ولذلك نراه يتحسر فى ألم على ضياع مفهوم التصوف الأصيل فى القرون الأخيرة ، لأن التصوف فى هذا الدور جعل من طريقة الإخلاص والزهد والعرفان والخير أداة غش ومطامع وجهل وفساد على حد قوله[3].

---

(1) حامد طاهر (الأستاذ الدكتور) : مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية – دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة 1985 ص 74 .

(2) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 347.

(3) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 347

ولعمرى إنه لقول حق فقد تسبب المتأخرون من أتباع التصوف فى كثير من الأخطاء من جراء ممارستهم الخاطئة . فقدموا صورة مشوهة تماما للتصوف أفقدته صورته النقية التى ينبغى أن يكون عليها ليظل موافقا كما كان فى أصل نشأته لصحيح الدين عقيدة وشريعة ولابد من ذلك .

ولأجل ذلك فلم يكن شيخنا مصطفى عبد الرازق متجنيا فيما أخذه على الصوفية فى عصره كما سيأتى بعد ذلك ولا فى قدمه من نقد بسبب ما لحق التصوف من تدهور . فقد شهد هذا كله كما شهده أستاذه الإمام محمد عبده وكما نشهده نحن المعاصرين الآن من صورة مشوهة على أيدى الكثير من أتباعه حتى صار التصوف عندهم رسما ولا أكثر من ذلك.

ولعل هذا يتبدى فى كثير من الصور المشوهة التى يقدمها أتباع الطرق الصوفية كدلالة على تقديرهم لأوليائهم ، وما يقدمونه بسلوكهم من مظاهر بدعية مستشنعة تسئ إلى صحيح الدين . فضلا عن تشويه صورة التصوف النقى الذى يلائم مشرب الإسلام الصحيح بطبيعة الحال . وبسبب هذا كله كانوا – الأتباع من المتأخرين – مادة لنقد الفقهاء والغيورين على صحيح الدين من العلماء والمصلحين .

ولهذا السبب فلم يفت شيخنا مصطفى عبد الرازق أن يقف طويلا عند هذه المسألة لشعوره بأهميتها وخطرها ولهذا نجده يقول " .. وقد انتدب للرد على المتأخرين من الصوفية من مقالاتهم كثير من الفقهاء وغيرهم واشتدوا فى النقد ، حتى عملوا بالنكير كل ما وقع للمتصوفة فى

طريقهم ، وأكثر ما تناوله الأخذ والرد بين الباحثين هو موضوع الكرامات للأولياء ، فحق أن نعرض للولاية وصلتها بالتصوف ثم نتكلم فى كرامات الأوليـــاء[1].

ومن هنا فقد لزم أن ننتقل إلى هذه المسألة لنتبين حقيقة مفهوم الولاية وحدودها عند شيخنا مصطفى عبد الرازق . ثم لنتبين وهذا هو الأهم نقده للأمور البدعية التى أدخلها المنتسبون إليه على هذه المرتبة العالية الرفيعة فى دين الإسلام ، نعنى مرتبة الولاية .

ثانيا : الولاية مفهومها وحدودها :

وأول ما يتعين علينا تقريره بداية وقبل بيان رأى شيخنا مصطفى عبد الرازق أن نؤكد على أن الولاية مرتبة عالية من مراتب الكمال فى العبادة القائمة على الإخلاص الكامل لله تعالى كما دلت على هذا النصوص الدينية قرآنا وسنة . ففى القرآن مادة لا يستهان بها فى مكانة هذه المرتبة وأوصاف أصحابها من الكمل فى العبادة والتقوى[2]. وفى الحديث القدسى كذلك بيانا لما أعده الله تعالى لهم وما خصهم به فى قوله تعالى : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب .. إلى قوله كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ... الخ الحديث[3] .

---

(1) مصطفى عبدالرازق : مادة التصوف ص 347 .

(2) وردت كلمة الولاية مرتين فى القرآن ، أما مشتقات الولاية فمنها الولى وجمعه أولياء فالأول ورد فى القرآن فى أربع وأربعين موضعا ، أما الثانى فقد ورد فى اثنين وأربعين موضعا – أنظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – وضعه محمد فؤاد عبدالباقى – طبعة دار الشعب – القاهرة 1945 ص 766 – 767.

(3) وبصدد الحديث القدسى انظر صحيح البخارى طبعة دار الكتب العربية – طبعة مصورة ج4 ص 129 – ويروى الحديث بأكثر من صيغة . انظر فى ذلك الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية – جمعه الشيخ محمد المدنى – مكتبة الأزهر – القاهرة 1980 ، وأيضا ص 146 .

فإذا ولينا وجهنا شطر شيخنا مصطفى عبد الرازق وجدناه يقرر أن اسم الولاية مأخوذ من قوله تعالى "**الله ولى الذين آمنوا**"[1] . وقوله تعالى "**وهو يتولى الصالحين**"[2] . وقوله تعالى "**أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** "[3]. وقوله تعالى " **إنما وليكم الله ورسوله**"[4]. وقوله تعالى "**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون**"[5].

وعلى ضوء تلك الآيات القرآنية وغيرها ، فمادة الولى على ما يرجحه أئمة المفسرين كالطبرى (ت 310هـ) والزمخشرى (ت 538هـ) والرازى (ت 606 هـ) تدل كما يرى شيخنا على معنى القرب ، فولى كل شئ هو القريب منه فى اللغة[6]. وهذا ما نجده عند الزمخشرى إذ الولاية بكسر الواو من وليه وليا ، أى دنا منه دنوا ، وأوليته إياه بمعنى أدنيته ومنه والاه وموالاة ، ووالى بين الشيئين قارب بينهما[7]. ومن معنى الولاية النصرة ، إذ الولى يجىء على وزن فعيل

---

(1) سورة البقرة : الآية 257 .

(2) سورة الأعراف : الآية 196 .

(3) سورة البقرة : الآية 286 .

(4) سورة المائدة : الآية 55.

(5) سورة يونس : الآية 62 .

(6) مصطفى عبدالرازق : مادة تصوف ص 347 .

(7) الزمخشرى : لسان البلاغة - تحقيق عبدالرحيم معروف - دار الكتب - القاهرة 953 مادة ولى .

بمعنى فاعل ، وهو من توالت طاعته بغير أن يتخللها معصية وتجيء الكلمة أيضا بمعنى مفعول وحينئذ ينصرف معناها إلى من تولاه الحق تعالى بإحسانه وفضله ، ولهذا فمن أسمائه تعالى الولى وهو الناصر والوالى ، وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها . وأيا ما كان الأمر ، فالولاية ينصرف معناها إلى القرب والنصرة ، والذى لا ينفك معناها عن المحبة والمودة أى النصير ....[1] .

فظاهر إذن مما تقدم أن الولاية لغة تعنى القرب ، لكن القرب من الله ليس قربا مكانيا بطبيعة الحال لأنه مما يتنافى مع تصور الله الذى يند عن المكانية بوصفها ملازمة للأجسام تعالى الله عن ذلك . وعلى هذا فولى الله كما يقول شيخنا مصطفى عبد الرازق من كان قريبا منه بالصفة التى وضعها الله أى الإيمان والتقوى[2] . ومن ثم فإذا كان العبد قريبا من حضرة الله بسبب كثرة طاعاته وكثرة إخلاصه ، وكان الرب قريبا منه برحمته وفضله وإحسانه فهنالك حصلت الولاية[3].

بيد أن هذا المعنى القرآنى للولاية سرعان ما تطور كما يقول شيخنا مصطفى عبد الرازق تبعا لما حدث فى الملة من المذاهب المختلفة ، وتبعا لتطور التصوف نفسه ، فأصبح الولى عند المتكلمين كما يقول هو من يكون آتيا بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ، ويكون آتيا بالأعمال

---

(1) ابن منظور : لسان العرب – الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر – القاهرة – بدون تاريخ –مادة ولى .
(2) مصطفى عبدالرازق : مادة تصوف ص 347 .
(3) مصطفى عبدالرازق : مادة تصوف ص 347 .

الصالحة على وفق ما أتت به الشريعة[1] ، وإليه الإشارة بقوله " الذين آمنوا وكانوا يتقون "[2].

أما الولاية عند الصوفية ، فيستدل عليها شيخنا مصطفى عبد الرازق بما يرويه القشيرى (ت 465هـ) إذ الولى بمعنيين أحدهما أن يكون فعيلا بمعنى مفعول كفعيل وجريح بمعنى مقتول ، وهو الذى يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته ، فلا يكله إلى نفسه لحظة ، بل يتولى رعايته على التوالى ويديم توفيقه إلى الطاعات . وثانيهما أن يكون فعيلا مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير فيكون معناه من يتولى عبادة الله وطاعته . ومن ثم فطاعته تجرى على التوالى من غير أن يتخللها معصية ، فيكون وليا بمعنى توالى طاعاته لربه ، ووليا بمعنى فضل ربه عليه . وكلا المعنيين يجب تحقيقه ، حتى يكون الولى وليا ، فيجب أن يتحقق قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء ويتحقق دوام حفظ الله تعالى إياه فى السراء والضراء[3].

وعلى ضوء ما تقدم فالولاية عند الصوفية وكما تدل عليها أقوالهم - الصوفية - تأتى من جهتين أولاهما من يتولاه الله بعنايته ورعايته فيكون وليا باجتباء الله له ، وثانيتهما من يتولى عبادة الله والتقرب إليه بالطاعة بأداء الفرائض والنوافل وبهذا المعنى الأخير كانت الولاية حقا متاحا لكل المؤمنين كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والحديث القدسى بشأن الولاية ولا كذلك المعنى الأول فهو الذى يعم كثيرا من الصوفية ،

---

(1) مصطفى عبدالرازق : المرجع السابق ص 348
(2) سورة النمل : من الآية 53 وأيضا من الآية 18 سورة فصلت .
(3) مصطفى عبدالرازق : مادة تصوف ص 348.

ودليلنا على ما نقول أن الولاية عند أبى سعيد بن أبى الخير (ت 440 هـ) محض اجتباء وفضل من الله[1] .

ونفس هذا المفهوم نجده عند الهجويرى (ت 466 هـ)[2] ، وإن كان بعضهم كالجيلانى (ت561هـ) يفضل المعنى الأول لا الثانى . فهو موهبة وهذا الأمر نادر لأحاد الخلق على حد قوله[3] . ولا كذلك أمر الولاية عند الرفاعى معاصره (ت 578هـ) إذ الولاية محض اختصاص من الله لبعض عباده ، فيختص الله تعالى برحمته من يشاء من عباده[4].

وأيا ما كان الأمر فإن شيخنا مصطفى عبد الرازق يخلص إلى أن الولاية عند الصوفية عبارة عن دوام الاشتغال بالله والتقرب إليه بطاعته ، فإذا كان العبد بهذه الحالة فلا يخاف من شيء ولا يحزن من شيء ، لأن مقام الولاية والمعرفة تمنعه من أن يخاف أو يحزن[5].

---

(1) المهينى : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ترجمة الدكتوره إسعاد قنديل ، الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1994 ص 1 ، 62 ، 63 .

(2) الهجويرى : كشف المحجوب - تحقيق الدكتوره إسعاد قنديل - مراجعة الدكتور يحيى الخشاب - طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة 1975 ج2 ص 459 .

(3) الجيلانى : الفتح الربانى - طبعة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة 1979 ص 229 .

(4) الرفاعى : البرهان المؤيد - تقديم صلاح عزام - مطبعة دار الشعب 1971 ص 72 .

(5) مصطفى عبدالرازق : مادة تصوف ص 348 .

والمهم فى قول شيخنا الشطر الأخير فيه نعنى ربطه بين الولاية والمعرفة عند الصوفية ، لأن كمال الولاية عندهم يتلازم عنه المعرفة بالله فتكون المعرفة بالله بوصفها استحقاقا لولايتهم لأن الولى عندهم كما يقول شيخنا هو الواصل إلى مرتبة العرفان عن الطريق الموصلة إلى تلك المرتبة فى رأيهم وهو العارف أيضا[1]. وهذا صحيح فى مذهب الصوفية، إذ الولاية قرينة المعرفة ولهذا فلم يتحرج الهجويرى أن يقطع فى غير مواربة من أنها – الولاية – أساس طريقة التصوف وأساس المعرفة على حد قوله[2].

وهذه المعرفة التى تحصل للأولياء ، وأشار إليها شيخنا مصطفى عبد الرازق أمر يقره أهل السنة ، إذ هى عندهم ثمرة لأعمالهم – الأولياء – التى حققوها فى طاعة الله بعد ما علموا من أوامره ونواهيه فكانت أعمالهم تحقيقا لعلمهم لأن من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، والشواهد علة ذلك كثيرة كما يقول ابن تيميه فى الكتاب والسنة[3]، كمثل قوله تعالى : " **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورًا تمشون به**"[4]. وقوله تعالى "**الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**"[5] ، وقوله تعالى :

---

(1) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق نفس الصفحة
(2) الهجويرى : كشف المحجوب – الجزء الثانى ص 442 .
(3) ابن تيميه : التحفة العراقية فى الأعمال القلبية – تحقيق قصى محيى الدين الخطيب – طبعة المطبعة السلفية – القاهرة 1399 هـ ص 39 .
(4) سورة الحديد : الآية 28 .
(5) سورة البقرة : الآية 257 .

"أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه"[1] ، وقوله تعالى "وكذلك أوحينا إليك روحا من عندنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا "[2].

وهذه المعرفة التى يجعلها الصوفية وأئمة أهل السنة كابن تيميه (ت728هـ) لازمة من لوازم الولاية فى مذهبهم والتى فطن إليها شيخنا فى إشارته السابقة هى التى جعلت للمرأة حقا فى الولاية عنده تماما كما هى حق متاح للرجل . وليس أدل على هذا من قوله صراحة "لا نعرف خلافا فى جواز الولاية وما يتبعها من الكرامة والعرفان للنساء ، وإنما حصل الخلاف فى نبوة النساء "[3].

وتأكيد شيخنا مصطفى عبد الرازق على جواز حصول الولاية للمرأة لا غرابة فيه ، لأن الولاية بحسب التصور القرآنى حق متاح لكل المؤمنين إذ الذكورة والأنوثة هنا لا محل لها ، مادام الكل يحققون معنى العبادة الكاملة والطاعة لله المأمور بها فى كتابه الكريم وكما بينتها السنة النبوية المطهرة .

فالولاية إذن تحصل للمرأة كما هى حاصلة للرجل ولا عجب فى هذا لأن محك الحصول فى الصنفين يظل مرهونا فى رأينا بكمال العبادة ودوام القرب من الله بالأعمال الصالحات . ولا نزاع فى أن الصلاح فى

---

(1) سورة المجادلة : الآية 22 .
(2) سورة الشورى : الآية 52 .
(3) مصطفى عبدالرازق : مادة تصوف ص 374 .

العبادة والكمال والتقوى فيها يشمل الجنسين معا فى دين الإسلام، لأن التكاليف الشرعية فى الإسلام تشملهما معا لا فرق فى بين الذكر والأنثى وإنما يقع التفاوت بسبب التقصير فى العمل دليل هذا قوله تعالى : "فاستجاب لهم ربهم أنى لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى"[1] .

وفى تقدير شيخنا لحق المرأة فى الولاية استبصار وفهم عميق لعقيدة الإسلام وشريعته. وفيه أيضا من التقدير للمرأة الشيء الكثير ، وليس هذا بغريب على شيخنا مصطفى عبد الرازق فهو يمثل الفهم المستنير لدين الإسلام وشريعته السمحاء ومن ثم فليس بدعا أن يؤكد على حقها فى هذه الناحية كما أكد على حقها فى العمل بل والإرشاد الدينى انطلاقا من مكانتها فى الإسلام وليس أدل على ذلك من قوله " .. وما لا نرجوه أن يكون عندنا فى يوم من الأيام نساء إلى جانب رجال الدين ، إذا كنا أخذنا نشعر بحاجة بناتنا إلى العلم ، وكنا لا نزال نعتقد بضرورة التعليم الدينى لأمتنا ، فمن الإنصاف أن نفكر فى إنشاء معاهد لتعليم البنات وجعلهن شيخات "[2].

بل أكثر من ذلك فلا بأس أيضا أن تأخذ المرأة حقها فى الإرشاد الدينى والدعوة إلى الله بما قدر لها من طاقات هائلة يدلنا على ذلك قول شيخنا صراحة " ومن مصلحة الدين نفسه أن تأخذ المرأة بنصيبها من مدارسته - الدين - وروايته والتصدى للإرشاد به والدعوة إليه ، فإن

---

(1) سورة آل عمران : من الآية 195 .

(2) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 168 .

للطبيعة النسائية استعدادا خاصا للتأثر بالخلابة الدينية ، ولها منافذ لطيفة إلى طيات القلوب ، وما أحق الدعوة الدينية ، وهى نور يشرح الله له الصدور أن تحملها إلى النفوس أكف النساء بين الجمال والحب وأثناء الرياحين ، ثم أنه من الخير لرجال الدين أن يشتد ساعدهم بنصرة النساء كما اشتد بهن ساعد النبيين من قبل "[1].

ولهذا السبب يعود شيخنا ليؤكد على حق المرأة فى أن تصل إلى أقصى مراتب الولاية، إذ ليس هناك ما يمنعها عن ذلك شرعا وعقلا ، وما فى أحكام الشرع من وجوب التفرد أحيانا من المرأة والرجل يرجع إلى أمور عادية متصلة بالمادة كما فى التفاوت فى الإرث والتفاوت فى الشهادة لا يبعد عن هذا النوع ، فإن ضعف الذاكرة المعلل به نقص شهادتها ، ليس حيفا بكمالها الروحى ولا باستعدادها للسمو الدينى "[2] .

ويعود شيخنا ليؤكد على أن المرأة لا تصل إلـــى مرتبة الولاية وفقط ، بل إنها يمكن أن تصل كذلك إلى أعلى مراتبها ، فتحوز بالتالى المعرفة بالله وتتثال عليها المعارف وتشهد مالا تشهده غيرها ممن لم تتوفر على القيام بحق الله فى الطاعة والتقوى فيكون ثمرة قربها من الله المعرفة منه وبه . ولا غرابة فى هذا عند شيخنا يؤكد هذا قوله طرحة " فلا عائق يعوق المرأة أن تسمو بروحها إلى أقصى غايات السمو المقدورة

---

(1) على عبدالرازق : المصدر السابق ص 168 .

(2) مصطفى عبدالرازق : مادة تصوف ص 355 .

للبشر ، لأن تصل إلى مرتبة العرفان والولاية ، وتشهد من جلال الحضرة الربوبية ما لا يشهده سائر البشر "[1] .

بل إن شيخنا ليمعن فى التأكيد على حق المرأة فى الوصول إلى مرتبة الولاية الكاملة والعرفان ويذكر أسماءهن فيقول : " ... وقد بلغت نساء هذه الدرجة الرفيعة فى عصور النهضة والرقى منذ نشأة التصوف الإسلامى ، وترجم الشعرانى (ت 973هـ) فى كتاب الطبقات لأربعمائة وست وثلاثين من الصوفية الأخيار ، منهن كما يقول ست عشرة امرأة كلهن من الطراز الأول بين أهل التصوف من أمثال معاذة العدوية ، والسيدة عائشة بنت جعفر الصادق والسيدة نفيسة ابنة الحسين . ولم يستوعب – الشعرانى – كما يقول مصطفى عبد الرازق – الصوفيات من النساء بل اقتصر على جماعة منهن ، وجعل عنوان الفصل المختص بالنساء فصل فى ذكر جماعة من عباد النساء رضى الله عنهن "[2] .

يعنينا من النص الذى أوردناه لشيخنا مصطفى عبد الرازق أنه لا يقتصر فقط على تقرير حق المرأة فى الولاية والعرفان فقط ، بما أورده الشعرانى فى طبقاته بل يراه قصر إذ لم يذكر إلا العابدات منهن . لكن الأمر أكبر من ذلك عند شيخنا . فنحن وإن كنا لا نعرف مؤلفات فى التصوف للنساء ، لكننا نعرف من آثارهن وأشعارهن وأخبارهن ما يقوم مقام الكتب المدونة ، ويدل على ما لبعضهن من منزلة الإمامة كرابعة

---

(1) مصطفى عبدالرازق : مادة تصوف نفس الصفحة .

(2) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة تصوف ص 355 .

العدويـــة[1] . وهى عنده –رابعة العدوية – السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن فى هيكل التصوف فى الإسلام . وهى إمام العاشقين والمحزونين فى الإسلام[2] .

وفضلا عن هذا كله فإنا لنجد فى كتب التصوف والأخلاق – كما يقول شيخنا مصطفى عبد الرازق – ذكرا لمتصوفات سيرتهن شاهد ومثل يحتذى[3] . ويستشهد بأمثلة على ذلك مما يرويه الجاحظ (ت 255هـ) من أسماء الناسكات المتزهدات المذكورات فى الزهد والرياسة من نساء الجماعة أم الدرداء ومعادة العدوية ، ورابعة القيسية ، ومن نساء الخوارج السجا وحمادة الصفوية وغزالة الشيبانية ومن نساء الغالية الميلاء وحميدة وليلى الناعظية[4] .

ولا ينبغى أن نغادر مسألة الولاية قبل أن نناقش مسألة الكرامة فهى واحدة من المسائل التى لازمت الولاية وكما أكد شيخنا مصطفى عبد الرازق . وهذا صحيح خاصة وأن كثيرا من أتباع الطرق الصوفية يعولون عليها كثيرا فى تقديرهم لمكانة الأولياء بل إن تقديسهم للأولياء من شيوخهم هو بحجم ما وقع منهم من كرامات حتى وإن لم يكونوا – الأتباع – معاصرين لوقوعها – الكرامات – على أيديهم إن وقعت !!

---

(1) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 357 .

(2) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 361 .

(3) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 357 .

(4) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق نفس الصفحة .

ولربما كان من قبيل وضع الأمور فى نصابها أن نقرر أن غلو الصوفية فى ضرورة وقوع الكرامة وفى تلازمها مع الولاية قد جاء من قبل أتباع الطرق الصوفية وليس من قبل شيوخهم المحققين من الأقدمين . ذلك لأن جلهم لا يرون ضرورة لأن فى أن يكون كمال مرتبة الولاية مرهونا بوقوع الكرامة . فقد تحصل الولاية دون أن يصحبها الكرامة ، ولا يعنى هذا نقصا فى الولاية ، إذ قد ينالها الممكور على حد قول ابن عربى[1] .

ولأجل هذا فالكمل من شيوخهم يعولون على الكرامات المعنوية لا الحسية ، لكن صنيع المتأخرين لم يكن كذلك فقد كانوا مشغولين بهذه الكرامات . لهذا سنبغى ألا نهون من مناقشة المسألة - الكرامة - لأنها سببت للصوفية الكثير من قبل خصومهم . وهو ما سبق وأن أكد عليه شيخنا مصطفى عبد الرازق من قبل .

وربما تبدو أهمية هذه المسألة أكثر إذا علمنا أيضا أن كثيرا من كتب الطبقات المتأخرة طافحة بالكثير من تلك الكرامات لشيوخ الصوفية حتى فاقت فى حدودها المعقول والمنقول عن أكابر الصحابة فضلا عما هو للأنبياء من المعجزات . ولقد أحسن الإمام محمد عبده تصوير حجم هذه المسألة بما هو حاصل عند المتأخرين من أتباع الصوفية فى عصره أولئك الذين ظنوا الكرامات وخوارق العادات من ضروب الصناعات ، بل

---

(1) انظر ابن عطاء الله السكندرى - لطائف المنن - تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود - القاهرة 1974 ص 123 .

يتنافس معها الأولياء ، وتتفاخر فيها همم الأصفياء ، وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعين على حد قوله[1] .

ومن هنا كان طبيعيا أن يتوقف شيخنا مصطفى عبد الرازق عند هذه المسألة بعض الوقت ليحدد موقعها من خلال العقيدة وآراء بعض الفرق الإسلامية . فالمعتزلة وبعض الأشعرية ينكرون وقوع كرامات الأولياء وجوازها ، وإن قالت طائفة أخرى بمنع خوارق الأنبياء والأولياء جميعا[2] . والمجوزون لها كما يقول شيخنا مصطفى عبد الرازق يرونها جائزة إذ ليس من فرض وقوعها محال . إذ هى أمور يتصور فى العقل حصوله ، من غير أن يؤدى إلى رفع أصل من الأصول . فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على إيجاده للولى ، وإذا وجب كونه مقدورًا لله فلا شيء يمنع حصوله[3] . وفى الاعتقاد بجواز وقوع الكرامة على هذا النحو كما يقرر شيخنا مصطفى عبد الرازق ما يتفق مع القول بالفاعل المختار كما يقول المتكلمون ، بل لا ينكره الحكماء أيضا لأنهم يقولون بأن النفوس الزكية قوى ربما تؤثر فى أكثر الأجسام التى فى عالم الكون والفساد[4] .

---

(1) محمد عبده (الأستاذ الإمام) : رسالة التوحيد - مطبعة النصر 1969 ص 182 .

(2) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 349 .

(3) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق نفس الصفحة .

(4) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 349 .

فى ضوء ما سبق فإن وقوع الكرامات جائز ولا يتنافى مع أصول الاعتقاد عند أغلب الأشاعرة إذ هى عندهم أمور يجريها الله على أيدى أوليائه . وليس فى تجويزها كما يقولون قدح فى النبوة إذا وقعت بوجه دلالة المعجزة . وما جاز فى قدرة الله سبحانه وتعالى[1] . بل إن أهل السنة يجوزون كذلك وقوعها على أيدى الصالحين كما يقول البيهقى ، الأمر الذى يوجب اعتقاد جوازها[2] .

بيد أن جواز إنكارها – الكرامة – كما يقول الإمام محمد عبده لا يهدم أصول الاعتقاد، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أى كرامة من أى ولى كان ولا يكون بإنكارها هذا مخالفا لشىء من أصول الدين ولا منحرفا عن الصراط المستقيم اللهم إلا أن يكون مما صح فى السنة عن الصحابة[3] .

فإذا عدنا إلى شيخنا مصطفى عبد الرازق نراه لا يستبعد جواز وقوعها على أيدى الأولياء ، لأن الولاية إذا كملت رفعت صاحبها إلى

---

(1) الجوينى (أبوالمعالى) : العقيدة النظامية – تحقيق وتقديم الدكتور أحمد السقا – مكتبة الكليات الأزهرية 1979 ص 70 . وانظر أيضا للبغدادى : الفرق بين الفرق – دار الآفاق الجديدة – بيروت – الطبعة الخامسة 1982 ص 134 .

(2) البيهقى : الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة – مكتبة السلام العالمية – القاهرة ص 189 وانظر بصددها الكرامات التى عرض وحدثت للصحابة والتابعين من ص 190–195 .

(3) محمد عبده : رسالة التوحيد – مطبعة النصر – القاهرة 1969 م ص 182.

مقام العرفان ، وحينئذ تتكشف له الحجب ويشهد من علم الله مالا يشهده سواه ، ويظهر على يديه الكرامة التى هى أمر خارق للعادة[1] .

وربما يزداد الأمر وضوحا عند شيخنا بصدد إمكان وقوع الكرامة للأولياء ، إذا أدركنا أن جواز وقوعها عنده لا يتوقف على الرجال من الأولياء دون النساء ، إذ الولاية كما أسلفنا عنده وكما ألح هو على ذلك حق متاح للاثنين بلا منازع لأن المؤمنين والمؤمنات إذا داوموا على بلوغ أقصى درجات الكمال فى العبادة والطاعة الخالصة لله تعالى فقد استحقوا بذلك مرتبة الولاية ، وكان لهم حينئذ ثمرتها من العرفان . ومادام الأمر كذلك فلا ضير أن تقع الكرامات لمن كملت ولايتهن من النساء وشيخنا صريح فى تأكيد هذه المسألة لأنا نراه يقــول: " ... وما يكون لأحد أن يزعم فى الإسلام نزوعا إلى الغض من الجانب الروحى للمرأة بعد الذى بيناه من استعدادها لمراتب الصوفية العليا التى تكشف فيها حجب الغيوب وتفيض على صاحبها الكرامات ... "[2] .

لكن جواز وقوع الكرامات الذى أثبته شيخنا للكاملين فى مرتبة الولاية من النساء والرجال لأن ذلك مما يجوزه الاعتقاد لم يمنعه فى الوقت ذاته إنكار وقوعها أيضا ، وخاصة إذا بلغت حداً فاقت به المنقول والمعقول . ولربما لهذا السبب وجدناه يكشف من طرف خفى إلى رفضها لأنها صارت شغل الذين تعلقوا بالأولياء فى عصره من الصوفية ، فصار كل همهم إسباغ وقوع الكرامات على أيديهم كلما طلبوها منهم فى أوقات

---

(1) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 355 .

(2) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص .

الشدائد . ونحن نلمح شيئا من هذا مما يرويه شيخنا ناقدا مسلك الصوفية على لسان الشيخ الفزارى فى مذكراته إذ يقول : " ... خبرنى زميلى الشيخ م . ع أن الأستاذ الشيخ س كان قبل أن تتفتح فى وجهه سبل المال محسوبا على السيدة زينب رضى الله عنها ، وشهد من مناقب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عجائب لا تحصى . دخل مرة إلى مقامها وهو ذو عسرة ، فأفضى بشكواه ثم صلى ركعتين وجلس مطرقا وبينما هو فى سهوه ، إذ رأى السيدة خارجة من قبرها الزكى فى حلل سندس وإستبرق تحمل صرة وضعتها بين يديه وأسرعت إلى مضجعها الأبدى . قال الراوى وهو عندى ثقة ولا يزال الشيخ يحتفظ بالصرة وبعض تلك النقود بركة..."[1] .

هذه الرواية التى ذكرناها تكشف عن سيطرة الكرامات على عقول العوام والخواص من المسلمين . ومن ثم صار همهم الأكبر انتظار حصولها من أوليائهم فى حياتهم ، بل وبعد أن يكونوا أمواتا فى القبور . وبدلا من أن يأخذوا بالأسباب الموضوعة فى الكون فى تيسير حياتهم ، تعلقوا بتلك الكرامات وعطلوا الأسباب . وقد فعلوا هذا لأن شيئا منه للأسف الشديد قد وجد لدى بعض شيوخهم الأقدمين وإلا فكيف نفسر قول بعضهم لقد صحبت أقواما يعبر أحدهم على الشجرة اليابسة فيشير إليها

---

(1) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 100 .

فتثمر رمانا للوقت ، فمن صحب هؤلاء الرجال فماذا يصنع بالكيمياء.."[1].

ولعله لهذا السبب كان نقد شيخنا المستنير مصطفى عبد الرازق لفكرة رواج الكرامات بين صوفية عصره ، وكأن الولاية لا تكون عندهم إلا بهذه الكيفية ، فصارت الكرامة صناعة!! وحق لمفكرنا الكبير زكى نجيب أن يؤكد على خطر هذا على مستوى الممارسة السلوكية ، فقد أضحت قوانين الطبيعة كما يقول لعبة فى أيدى نفر من أصحاب القلوب الورعة الطيبة بدعوى قربهم أو صلاحهم ، مع أن المفروض أن يمتد صلاحهم فيما ينفع الناس فى شئون دنياهم على حد قوله !![2] .

إن ما سبق كله يعنى شيئا واحداً خلاصته أن الكرامات والاستغراق فى قبولها يفتح مجالا راسعا للخرافات فضلا عما فى هذا من تعطيل للأسباب الكونية التى أودعها الله فى الكون . ولذلك كان موقف شيخنا مهما لتأثير ذلك على صفاء العقيدة الإسلامية فى العقول والقلوب . ومن هذه الحيثية كان شديد النكير على صوفية عصره الذين تعلقوا بها تعلقا شديدا . نلمح ذلك فى نقده لهم على لسان الشيخ الفزارى فى مذكراته إذ يقول " فرغ من نحو أسبوع ما كان عندى من عسل وجبن ، ولم تصلنى الدراهم التى أنتظرها من والدى ، فأنا أتبلغ بجرايتى التى أتناولها

---

(1) ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن – تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود – القاهرة 1974 ص 174

(2) زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربى – دار الشروق – الطبعة التاسعة – القاهرة 1993 ص58 وانظر أيضا ص 27 من نفس المرجع .

من وقف أو توزيتير طعاما من غير أدم . جاشت إلى النفس أول مرة . وحسبت هذه العيش الخشن لا يكفى لقوام بنيتى ولكنى ذكرت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطوى الحجر على بطنه من الجوع ، وأن مثل ابن الخطاب – رضى الله عنه – كان يكتفى فى كثير من حياته ، وهو أمير المؤمنين بخبز أغلظ من خبزى المصنوع من مخبز الرمالى ، فذلت نفسى لما وطنتها عليه وردت على مكروهها فاستقرت . وبينما أنا فى حجرتى أصيل اليوم ، إذ دخل علي الشيخ قاسم، وهو رجل أرتجى بركة دعائه واليمن بوجهه ، وإن كنت لا أقبل شهادته ، سلم فجلس فقال : جئت لأتعشى معك يا شيخ حسان . قلت مرحبا وأهلا . ثم نهضت إلى كتبى ، فاخترت منها سفراً لم يذهب تناول الأيدى رونق جدته ، وكان هو كتاب " حاشية الدسوقى على أم البراهين " وذهبت إلى دكان الحاج صالح ، فابتعت رغيفا بمليمين وطحينية بأربعة ، وزيتونا بأربعة آخر . وقدمت الكتاب رهنا حتى أملك أداء دينى ، غضب الرجل وقال : هل صرنا خــواجات يا شيخ حسان ؟ وهل ذهبت الأمانة من دار الإسلام ؟ لا حاجة بى إلى رهن ، ولست أخاف منك المطل عند القدرة ، خذ إليك كتابك ! ودفعنى بلطف ، سرت إلى دارى متأثرا بمروءة الحاج صالح إلى حدْ جعلنى أكفكف من دمعى حياء من أن يرانى الناس باكيا . تناولت العشاء مع ضيفى الشيخ قاسم الذى انصرف بعد ذلك وهو يدعو لى بالستر وأخــذت أرتب أمتعة لى ، فعثرت فى جيب صديرى لم أكن لبسته من

زمن على قرش صاغ . عرفت أن تلك كرامة من الشيخ قاسم ، وأسرعت إلى الحاج صالح أروى له الحكاية وأفيه دينـــه ..[1].

ولم يتوقف نقد شيخنا مصطفى عبدالرازق عند هذا الحد بل لقد امتد نقده واشتد لصوفية عصره لما وقع فى عقولهم من اعتقادات فاسدة وممارسات خاطئة نتيجة سوء فهمهم لحقيقة الولاية وتقدير مكانة الأولياء . لذلك نرى أن نتوقف عند هذه النقطة لأن نراها وثيقة الصلة بما يجرى فى حياتنا المعاصرة على أيدى المنتسبين إلى الصوفية ، والصوفية الحقيقية فى دين الإسلام منهم براء !!.

ثالثا : نقد الاعتقادات الفاسدة والممارسات الخاطئة عند الصوفية

وقد ارتبط تقدير مكانة الأولياء عند أتباع الطرق الصوفية بتقديسهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، وبدلا من أن تكون القدوة بأفعالهم وخصالهم الكريمة هى الأصل فى الاتباع ، صار التمسح بهم والامتثال إليهم والغلو فى تقدير ذواتهم هو غاية همهم ولا شىء سواه فيما نراه الآن من أحوالهم . وبالتالى فقد اندثر مفهوم الاتباع وصار الابتداع هو حاصل حال الصوفية يستوى فى ذلك من كان منهم من عامة المسلمين أو خاصتهم وهو الأمر الذى يصوره شيخنا فيقول : "..على أنه لا ينبغى للمؤرخ أن يغفل عن شىء وهو أن المسجد الأحمدى هو جامع سيدى

---

(1) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 83-84 .

أحمد البدوى (ت 675هـ)[1] . وفيه قبره ومخلفاته ، وفيه آثار مقدسة عند العامة وكثير من الخاصة ، وفيه مقابر لغير السيد من الأولياء .. "[2].

ويفصح شيخنا مصطفى عبدالرازق عن تلك الممارسات الخاطئة للاعتقادات الفاسدة لأتباع الصوفية فى عصره فى تقديسهم لأوليائهم فيقول صراحة " .. والسيد البدوى هو أشهر أولياء القطر المصرى وصيته وكراماته ذائعة فى أنحاء وادى النيل[3] ، وللناس فيه اعتقاد ولزائريه من صور التوسل والزلفى ما لا يخلو من الإسراف "[4] .

---

(1) يُذكر ابن الملقن فى طبقات الأولياء أن أصله من بنى يرى قبيلة من عرب الشام وأنه ولد 596هـ وتوفى 675هـ . انظر طبقات الأولياء تحقيق نور الدين شريبه - مكتبة الخانجى - القاهرة - الطبعة الأولى 1973م ص 422 - 423 ويذكر صاحب طريقته أحمد حجاب أن مولده بمدينة فاس إحدى مدن مراكش وأن أتباعه يحتفلون به قديما وحديثا فى المسجد الأحمدى بعيد ميلاده فى ليلة الأربعاء من شهر ذو الحجة فى كل عام ويظهر من تخصيصهم الاحتفال بهذه الليلة بالذات أن ميلاده على ما يقول كان فى الشهر الأخير من سنة 596هـ - انظر فى ذلك : العظة والاعتبار آراء فى حياة السيد البدوى الدنيوية والبرزخية - طنطا - بدون تاريخ .

(2) مصطفى عبدالرازق : محمد عبده - دار المعارف - القاهرة - 1945 ص 31 .

(3) انظر فى تفصيل كراماته ما أورده صاحب كتاب العظة والاعتبار آراء فى حياة السيد البدوى وحياته الدنيوية والبرزخية وهو من أتباع طريقته ص 210-225.

(4) مصطفى عبدالرازق : محمد عبده ص 33 .

ومن هذه الحيثية تبدو ألمعية شيخنا فى نقده لتلك الصور الخاطئة عنـــد الصوفية فى الاعتقاد والسلوك ، نعنى الغلو فى حق الأولياء وتقديسهم ، والتوسل بهم لقضاء الحوائج أو تفريج الكربات وهى أمور لازمت تصورهم للولاية ونجدها عند العامة بل والخاصة . حتى استقر فى أذهانهم أن دوام التعلق بهم - الأولياء - لا يكون إلا بالإتيان بهذه الممارسات لهذا اشتد شيخنا فى نقد الصوفية لأن الحاصل منهم - الأتباع - غير ذلك فى حق الأولياء وفى ذلك يقول " .. ومسجد السيد البدوى مورد أهل الطرق ومجمع المجاذيب الذين يظن كثير من الناس أن لهم فى صفحة الغيب لمحات "[1] .

وقبل أن نغادر هذه النقطة إلى غيرها عند شيخنا مصطفى عبدالرازق فى نقده للصوفية لابد وأن نقرر أمرا له أهميته فيما نحن بصدده لتلك النقطة . ذلك لأن موقف شيخنا ونقده لهذه المظاهر البدعية التى لصقت بمفهوم الولاية على أيدى المنتسبين للطرق الصوفية يمثل فى رأينا موقفا جديرا بالتقدير والاعتبار . وهو أمر متوقع من شيخنا بوصفه مصلحا دينيا غيورا على صفاء العقيدة فى العقول والقلوب وبوصفه مفكرا مستنيرا فى ذات الوقت ولأجل هذا لم يسكت صوت الحق فى داخله إزاء

---

(1) مصطفى عبدالرازق : محمد عبده ص 33 - والمجاذيب المفرد منها المجذوب وهو عند الصوفية من اصطفاه الحق نفسه واصطفاه بحضرة أنسه وأطلعه بجانب قدسه ففاز بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب - انظر التعريفات للجرجانى تحقيق الدكتور عبدالمنعم الحفنى - دار الرشاد - القاهرة 1991 ص 231 .

رؤيته لتلك المظاهر الخاطئة وهو عين ما حذر منه ونبه على خطره أستاذه وإمامه محمد عبده ، لما شدد النكير على مسلك مما استعانوا بغير الله فى قضاء الحوائج ودفع الكربات ، أولئك الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح ، وهم كما يقول محمد عبده ناكبون وعن ذكر الله معرضون[1] .

إن حاصل قول الإمام محمد عبده تنبيه مهم فى رأينا على ما دل عليه الهدى القرآنى من ضرورة أن يبذل الإنسان جهده وإرادته فيما يقوم به من الأعمال ، ولذلك فالاستعانة لا تكون إلا بالله ، وهى لا تكون إلا عند عمل بذل فيه المرء طاقته ولم يوفيه ويخشى ألا ينجح . وحينئذ يحق طلب المعونة على إتمامه ، وهذا يدل عليه قوله تعالى : إياك نستعين . فقد أفاد كما يقول الإمام محمد عبده ضرورة تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك ، وهو روح الدين وكمال التوحيد . وفى ذلك تخليص للنفوس من التعلق برق الأغيار وفيه أيضا ما يفك إرادتهم من أثر الروحانيين والشيوخ الدجالين وفى ذلك أيضا ما يطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين من الأحياء والميتين[2] .

---

(1) محمد عبده (الأستاذ الإمام) : تفسير جزء عم – تفسير فاتحة الكتاب – طبعة دار الشعب – القاهرة ص35.

(2) محمد عبده (الأستاذ الإمام) : تفسير جزء عم – تفسير فاتحة الكتاب ص35 .

فإذا عدنا ثانية لشيخنا مصطفى عبدالرازق وجدناه أيضا يأخذ عليهم أيضا - أتباع الصوفية - أمورا بدعية مما يحدث فى مجالس أذكارهم من رقص وطبل وصياح وصراخ وما شاكل ذلك من أمور بدعية لا تليق بما يجب أن يكون عليه ذكر الله لو أرادوا به قربة وزلفى إلى الله تعالى .

ولكى لا يكون هذا منا مصادرة على المطلوب أو مبالغة فى المكتوب عن شيخنا ، فمن الأفضل أن نسوق ما يرويه شيخنا فى مذكراته عن الشيخ الفزارى يصور به ما يريد إيصاله إذ يقول على لسانه ما نصه : " قال لى أمس الشيخ جاد أن الشيخ محمود الصعيدى حضر لزيارة سيدنا الحسين . وسينشد بنفسه فى حلقة الذكر ولما كنت أحب السماع وكنت أعلم بالتواتر أن ذلك المنشد هو بلبل الحلقات، وكما يسمونه فقد أسرعت قبيل العشاء إلى دار الشيخ ، وبعد أن صلينا جماعة انتظمنا عقداً محور دائرته الحاج على أبو يابس الذى كان يدير الحلقة . وابتدأنا الطبقة الأولى جلوسا على هيئة التشهد ننهض برؤوسنا إلى الأرض موقعة حركاتنا المرتبة على صيحاتنا الواضحة البسيطة بهذا الذكر الله .. الله .. الله . وأخذ المنشد يهتف بنغمات متشابهة ماادد .. ماادد . ثم وقف مدير الحلقة ووقفنا ، وانتقلنا إلى طبقة ثانية نهتز يمنة قائلين آه .. آه .. الله ونهتز يسرة قائلين آه .. آه.. الله . وأخذت النغمات الساذجة التى كان يرددها الشيخ محمود الصعيدى من غير تنويع تؤلف لحنا موسيقيا وجعلنا نسمع أبيات ابن الفارض الغرامية موقعة توقيعا إن فاتته مهارة الصانع لم يفته جمال الصوت ولا حس البديهة . وبعد ساعة حمى وطيس الذكر فأخذنا نهز رؤوسنا هزاً سريعا متواليا تصاحبه صيحات الله .. الل .. الله

..الل . وعلا صوت المنشد ، واشتد فدوى صريخا رناناً غير متمايز النغم وصرنا من نشوة الذكر وحماسته بحيث ترتج بنا جوانب المكان ارتجاجا ، ولم يعد من نفوسنا المملؤة بحرارة الهزات العنيفة والصرخات العاتية موضع للطرب بصياح المنشد الصعيدى منى لمحبك منى ارضى ما تمنى . ثم أوقف الحاج أبو على يابس الحلقة ساعة ليستريح الذاكرون فتسربت من خلال الصفوف مجهوداً مصدوع الرأس آسفا على ما أضعت من ليلتى.."[1] .

تلك ولا شك فى ذلك صورة دقيقة التفاصيل لما يجرى فى حلقات الذكر عند أتباع الطرق الصوفية . نجح شيخنا مصطفى عبدالرازق فى تسجيلها بل أقول فى تصويرها فى صورة دقيقة وهى صورة لا تحمل فى جزئياتها أدنى مبالغة ، بل هى تتكرر فى الموالد التـــى تقام من المنتسبين للصوفية لأوليائهم فى مواقيت معلومة من ناحية ، ثم هى فى الوقت ذاته تتكرر فى الحضرات التى يقيمونها من ناحية أخرى .

ولا نزاع أن ما يجرى فيها - الموالد والحضرات - من اختيار لصيغ الذكر وما يصاحبه من اهتزازات أو تمايل يصل إلى حد الرقص يمثل خروجا عن أدب مجالس الذكر فى شريعة الإسلام لأن ما يفعله الأتباع من أمور بدعية تفسد الذكر المشروع لله مع أنه عبادة وقربة حقيقية لله تعالى بل هو مأمور به لقوله تعالى : "**يا أيها الذين آمنوا**

---

(1) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 87 .

اذكروا الله ذكرا كثيرا"[1] . ولهذا جعله أبو على الدقاق (ت412هـ) منشور الولاية[2] . وهذا صحيح ، بل هو عين ما أكده ابن القيم (751هـ) أيضا لما جعل الذكر رأس الأصول ومنشور الولاية ، بل إنه أصل كل مقام وقاعدته على حد قوله[3] .

ولما كان هذا شأنه- الذكر - فقد لزم أن يكون فى مبناه وصورته بما يتفق وعقيدة الإسلام وشريعته . لكن شيئا من هذا وذاك لم يكن صنيع الطرقيين فى أذكارهم ومجالسهم فى عصره ، وهو الأمر الذى عاينه شيخنا مصطفى عبدالرازق وأصاب فى نقده ، فقد خرجت صورة الذكر فى مجالسهم بشكل يبرأ منه شيخنا ، بل يبرأ منه كل غيور على دين الإسلام .

ويكشف شيخنا مصطفى عبدالرازق عن حقيقة مسلك الصوفية بهذا الشكل غير المقبول فى مجالس أذكارهم فيقول ما نصه : " أعوذ بالله أن تكون من دين الفطرة تلك الهزات المضطربة ، وذلك الهدير الذى تفيض به الحناجر ولوددت أن أولئك المساكين إذ لم يستفيدوا من هذا العبث لأرواحهم جعلوا منه نفعا لأجسامهم فنظموا حركاته على وجه يمرن عضلاتهم العاملة حتى يصير نوعا من الألعاب الرياضية المفيدة ،

---

(1) سورة الأحزاب : الآية 41.

(2) القشيرى : الرسالة القشيرية ج2 ص 465 .

(3) ابن قيم الجوزية : الوابل الصيب من الكلم الطيب - طبعة المطبعة السلفية 1356هـ ص58-59

وحتى يمكن أن يلتمس له من الوجهة الدينية شبها بالرمى والوثب على الخيل وقد ندب إليها الشارع صلى الله عليه وسلم وكثير من صحبه "[1] .

لكن ما يأمله شيخنا مصطفى عبدالرازق من أمر الذكر ليس بالأمر الحاصل بالفعل عند الصوفية فلا هم ذكروا الله حقيقة كما أمرهم الحق تعالى ولا هم أفادوا أنفسهم بما يفعلون فكان ما لحق بأجسامهم من الأضرار أكثر بكثير مما قد يعود عليهم من تلك الأذكار سواء فى صيغها أو فى أدائهم لأذكارهم . ولعلنا نلمح هذا فى قول شيخنا ناقداً مسلكهم " .. كلا أنهـــم حرصوا على حركات تقليدية تشوه جمال الخلقة الإنسانية ونظامها ، وتشوش التناسب فى النمو بين أعضاء البدن ، وإنك لتعرف المدمنين على تلك الأذكار بعلامات لا تختلف إذ تغلظ رقابهم وتنزلق بطونهم وتربو أسافل ظهورهم .."[2] .

ولم يكن شيخنا مصطفى عبدالرازق بدعا فيما أخذه على الصوفية فى عصره فى مجالس أذكارهم من بدع مستشنعة كالرقص والزمر المصاحبين لأذكارهم ، فلقد سجل ذلك فى ألم وحسرة شيخه الأستاذ الإمام محمد عبده فقال ما نصه : " .. فمن شأن طرق المغاربة إن كانوا يجتمعون للذكر ، ويتخذون الطبول آلة لهم وبعضها كما يقول كان شكله مستديرا والبعض الآخر كان شكله دائريا ، وكلها تصدر أصواتا عالية أشبه بصوت المدفع بشكل يصم الآذان فإذا ما قاموا للذكر ارتفعت

---

(1) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 87 .

(2) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 87 .

أصواتهم مع أصوات الطبول ، وأتوا بألفاظ لا مدلول لها ، وكان من عادتهم الإتيان بمثل هذه العادة فى مسجد الإمام وفى مولده .. "[1] .

بل لم يكن الإمام محمد عبده وحده بوصفه مصلحا دينيا فذا هو الذى سجل هذا مما رآه بنفسه من صوفية عصره ، لأنا نجد أيضا واحدا غيره يسجل هذا فى موطنه ذلك لأن أبا المظفر الطرازى يذكر ذلك فيقـول:" .. إن أدعياء التصوف قد أفسدوا جوهره الأصيل بما ابتدعوه من بدع لا صلة لها بالتصوف كالرقص واستعمال الدف .. ، فاقترفوا بصنعهم هذا كما يقول جنايات نسبوها إلى الصوفية ، ولكن الصوفية منهم براء على حد قوله "[2] .

ونحن وإن كنا نتفق مع ما يقرره أبو المظفر الطرازى فيما يقول إلا أننا لا نأخذ قوله بإطلاق لأننا واجدون شيئا من هذا عند الصوفية وإن كان ذلك ليس هو الصحيح بل هو مما يبرأ منه الشيوخ المحققون . فما الحاضر إلا امتداد لما كان فى الماضى على يد البعض منهم ودليلنا على هذا أن الطوسى (ت378هـ) قد جعل الرقص من زلات الصوفية ومن أغاليط أفعالهم[3] . ولئن أكد الهجويرى أنه ليس له أصل فى الشريعة والحقيقة فقد عاد على استحياء فجعل للقلوب رقصها حين تصدق فى

---

(1) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام - الطبعة الأولى ، القاهرة 1391م ج2 ص 134-135 .

(2) رشيد رضا :المصدر السابق ونفس الصفحة .

(3) أبوالمظفر الطرازى : الأخلاق فى الإسلام ص 135 .

سماعها وفى هذه الحالة فما يظهر منها لا يمثل فى نظره رقصا ، لأنه بغير تمايل ولا دبيب قدم ، بل هو صهر للروح على حد قوله[1] .

لكن الهجويرى للأسف الشديد قد فاته أن أبا سعيد بن أبى الخير (ت440هـ) قد جعل السماع والرقص من صلب طريقته ، ولم يكن وحده هو الذى فعل ذلك[2] ، وإلا لما قال ابن الجوزى (ت597هـ) كان التصوف طريقة ابتداؤها الزهد الكلى ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص[3] .

ولعله لهذا السبب كان السماع والرقص بطريقته عند بعض الصوفية مثارا للطعن من جانب شيخنا مصطفى عبدالرازق ومن شيخه محمد عبده بل كان كذلك من جانب الفقهاء الأقدمين دليلنا على هذا أن ابن قدامه الفقيه الحنبلى (ت 620هـ) لما سئل عن حكم الدين فيمن يتواجد ويرقص فى حال محبته لله كان جوابه أن فاعل هذا مخطئ ساقط المروءة، والمداوم على هذا الفعل مردود الشهادة فى الشرع غير مقبول القول .. ،

---

(1) الهجويرى : كشف المحجوب ج2 ص 643-665 .

(2) انظر تفاصيل هذا فى ما أورده الميهنى عن أبى سعيد فى كتابه أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ترجمة الدكتوره إسعاد قنديل ص 143 ، 150 ، 165 ، 237 ، 259 ، 269 ، 338 ، وهناك بعض الطرق الصوفية الأخرى التى تجعل السماع والرقص أصلا من أصولها وهى الطريقة المولوية نسبة إلى جلال الدين الرومى أنظر لأستاذنا التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى - دار الثقافة للطبع والنشر - القاهرة 1976 ص 274 .

(3) ابن الجوزى : تلبيس إبليس - طبعة مكتبة النور الإسلامية - بدون تاريخ ص 161 .

وأما ما يدعيه بأن ذلك بفعل محبته لله فيمكن أن يكون محبا لله مطيعا له فى غير هذا[1] .

فإذا رجعنا القهقرى إلى شيخنا مرة أخرى بوصفه موضوع بحثنا وجدناه لا يرى غضاضة فى مجالس الذكر ، بشرط أن تخلص مما علق بها من بدع فى السلوك كالرقص والزمر وكما هو حاصل عند المنتسبين للطرق الصوفية ، ذلك لأن تلك المجالس عنده ضرورة لتغذية مطالب الروح بل إنه يرى فى سبيل تحقيق هذه المهمة ما هو أكثر من ذلك فيطالب بأن يقام فى كل قرية ساحة للذكر وفى ذات الوقت مسرح للتمثيل دليل هذا قوله صراحة " .. ولئن قلت فى السنين الأخيرة سرحات مشايخ الطرق ، فإن لنا العزاء فى طوائف أهل التمثيل ، أولئك الذين يتعهدون الشعور الدينى القيم ، وهؤلاء يغرسون نوعا من الشعور جديدا ، ونحن أمة محتاجة جد الحاجة إلى تربية شعورها ويا حبذا لو أقيم فى كل قرية ساحة للذكر ومسرح للتمثيل... حتى يعـرف الناس ساعـة لقلبهم وساعة لربهم[2] .

وإطلالة على النص الذى أوردناه آنفا لشيخنا مصطفى عبدالرازق تكشف لنا عن نقطتين غاية فى الأهمية . أولاهما : أن الدين عنده يمثل ضرورة للإنسان فى الارتقاء به إلى آفاق الكمال الروحى وذلك بما يقدمه الدين للمؤمن من أصول إيمانية للاعتقاد وهداية عملية فى السلوك بما

---

(1) ابن قدامه : ذم ما عليه مدعو التصـوف - ضمن مجموعة رسائل أخرى لغير المؤلف طبعة المطبعة السلفية - القاهرة 1296هـ ص 56 .

(2) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 183 .

يلزمه به من واجبات وعبادات ومن بينها رياضة الذكر لأنه عبادة مشروعة وأما ثانيتهما :فهى أن شيخنا لا يرى مانعا يمنع الإنسان فى أن يشبع جوانبه الوجدانية بما أودع الله فيه من حواس ركبت فى بدنه ، وفى سبيل تحقيق هذا الجانب يصبح الفن بالطبع وسيلة فعالة لتحقيق هذه المهمة.

وبدهى أن الفن هنا ينصرف إلى تلك الفنون الرفيعة التى ترتقى بالذوق الإنسانى فتخاطب وجدانه وإحساساته فى غير ابتذال وإسفاف . ومن ثم يمكن للإنسان أن يشبع إحساساته ويرتفع بها إلى آفاق عالية من السمو الروحى أيضا ، يدلنا على هذا قول شيخنا مصطفى عبدالرازق : "... تقابل بالاستبشار سرحة الأجواق الكبيرة تنشر ذوق الفنون الجميلة بين العامة ، فإن إهمال هذه الفنون كما قال المرحوم قاسم أمين هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور ... "[1] .

وفى ضوء ما قاله شيخنا فيما أوردناه آنفا فليس بغريب عليه – كما تقدم – أن يطالب أيضا بضرورة توفير مكان فى كل قرية ليكون مسرحا للتمثيل ، فى ذات الوقت الذى ينبغى توفير مكان أيضا ليكون ساحة للذكر ، بل إن شيخنا ليسأل الله أن يعين أهل الفن على القيام بهذه المهمة وأن يوفق الناس لتقدير مساعيهم فى تربية الأمة حق قدرها ..."[2].

ولعل ما سبق ينهض دليلا قويا على رؤية مصطفى عبدالرازق المتفتحة فى فهم الدين وصلته بشئون الحياة وأنه صاحب فكر دينى

---

(1) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 183 .
(2) على عبدالرازق : المصدر السابق ص 182 .

مستنير ومن ثم فهى رؤية لا ترى غضاضة فى الفن بوصفه ضربا من ضروب الإبداع ، ووسيلة فعالة فى الارتقاء بالذوق والوجدان . وليس ذلك الموقف من شيخنا المستنير بالأمر الغريب وهو الذى تشرب أفكار شيخه الأستاذ الإمام محمد عبده بما عرف عنه من رؤية متفتحة فى فهم الدين ومقاصده فى مقابل من يتاجرون بالدين فيحاربون باسمه عن جهل الفنون وغيرها من ضروب الإبداع لأنهم أعداء للقديم وأعداء للجديد على حد قول مصطفى عبدالرازق[1].

وهذا الموقف جدير بالتقدير ، فالإسلام يعطى للوجدان حقه وللعقل حقه وكما يرتقى بالبدن يرتقى بمطالب الروح كذلك . ولهذا فالفن ليس حراما بإطلاق وإنما الذى يحرم هو الفن المبتذل الذى ينصرف إلى إثارة رغبات الإنسان وغرائزه ويبتعد به عن الصواب[2] . وهو ما نجده عند المفكر الدينى العظيم محمد إقبال (ت1938م) فهو لا يرى مانعا من الفن فى الإسلام ، غاية ما هنالك أن إقبالا يفرق كما يقول أستاذنا الدكتور عاطف العراقى بين الفن الصحيح والفن الضعيف . ومن الجلى أن الأول يعد حلالا إذا بعث فى النفوس القوة والبهجة والأمل[3] .

---

(1) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 182

(2) زينب عفيفى (الدكتورة) : النزعة النقدية فى فكر محمد عبده – بحث منشور فى الكتاب التذكارى عن الإمام محمد عبده إشراف وتصدير أستاذنا الدكتور عاطف العراقى – إصدار المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة 1995 ص 185–186 .

(3) عاطف العراقى (الأستاذ الدكتور) : التسامح من منظور إنسانى تنويرى – بحث منشور فى الكتاب التذكارى عن الدكتور التفتازانى أستاذا للتصوف ومفكرا إسلاميا – دار الهداية – القاهرة 1995 ص 372 .

إن المهم فيما قررناه آنفا عند شيخنا مصطفى عبدالرازق لا يجعل من الحياة الصوفية أو الروحية انعزالا وهروبا من الحياة وانصرافا عن العمل كذلك ، بل العكس يجعل الحياة أيضا جد وكفاح واستمتاع فى الآن نفسه بما أحله الله للإنسان من الطيبات ، وبالقدر الذى يحفظ له حياته ويحقق له مطالبه البدنية والروحية فى وقت واحد .

فالنزعة الصوفية الصحيحة هى التى يتعين فيها هذا الحد الوسط ، فتكون بالتالى هى الصوفية الإيمانية فى رأينا التى تتفق والتصور الإسلامى الصحيح للحياة الروحية لأنها تعطى للروح حقها وللبدن والحواس حقهما . وهذا الحق مأمور به فى دين الإسلام وتؤيده نصوصه قرآنا وسنة . ولعل هذا هو الذى جعل عقيدة الإسلام كما يقرر بطروشوفسكى تحقق خير الفرد والجماعة ، لأن عنايتها بالحياة الدنيا لا تقل عن عنايتها بالحياة الأخرى ، لأنها لم تهتم بالمجال الروحى وحده وإنما اهتمت بالمجالات الأخرى المادية والعلمية والنفسية[1] .

إن ما سبق كله يسلمنا إلى نقطة مهمة عند شيخنا مصطفى عبدالرازق هى قناعته بأن التربية الروحية والخلقية لازمة للإنسان لزوم التربية الجمالية ، فهما معا مما يقرره الإسلام ولا يتنافى مع أصوله . فالإنسان فى التصور الإسلامى الصحيح يلزمه أن يكون خلوقا فى معاملاته مع الناس ومع الله ، وهذا الجانب الخلقى الذى يلزم الإنسان فى أعماله وأوقاته يمثل جانبا مهما فى بناء الشخصية الإسلامية لا يقل عن بنائها المادى والمعرفى .

---

(1) بطرشوفسكى : الإسلام فى إيران ص 11 .

وإذا كان الجانب الأخير يتحقق بالعلم بكل صوره وأشكاله والمعرفة والفنون وكل ضروب الإبداع الراقى فإن الجانب الأول – الخلقى – يتكفل به الدين وينهض بتحقيقه التصوف شريطة أن يظل فى وسطيته التى تلائم مشرب الإسلام ، ومن ثم لزم أن نتوقف عند هذه النقطة – التربية الخلقية – عند شيخنا مصطفى عبدالرازق لإبرازها بما يكشف عن فاعلية التصوف من هذا الوجه بالذات .

رابعا : التصوف ودوره فى التربية الخلقية :

وأول ما يتعين علينا التأكيد عليه – وكما هو ظاهر من أقوال شيخنا – أن التصوف فى جانبه الخلقى هو الذى لا يخرج عن كمال العبادة لله والتى يتعين أن تستند إلى أعلى درجات الإيمان والصدق والإخلاص والتقوى . فكلها لوازم لاغنى عنها لبلوغ الإنسان أعلى درجات الكمال الروحى والخلقى فى علاقته بالخالق والمخلوق ولهذا فليس غريبا إذن بعد ذلك أن يكون التصوف عند شيخنا يمثل العلم الذى يصور المثل الخلقى الإسلامى الأعلى[1] . وهو يستشهد على هذا بقول سمنون لما سئل عن التصوف فقال أن لا تملك شيئا ولا يمكنك شىء ، وبما قاله بشر الحافى لسرى السقطى إن الله خلقك حرا فكن كما خلقك لا ترائى أهلك فى الحضر ولا رقعتك فى السفر اعمل لله ودع الناس عنك ..."[2] .

هذه الأقوال وغيرها كثير مما لم يذكره شيخنا مصطفى عبدالـــرازق ، تمثل حقيقة الصوفية الإسلامية الحقيقية فى القرنين الثالث

---

(1) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 357 .

(2) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 357 .

والرابع الهجريين . فقد كان جل عنايــة أغلب شيوخها موجها للناحية الخلقية ، فليس التصوف رسما ولا علما ولكنه أخلاق[1] . ومن يرد أن يحققه بهذا المفهوم فى منطق طريقتهم ، فليس عليه إلا الخروج من كل خلق دنى وفى الدخول فى كل خلق سنى[2] .

ونظرة شيخنا مصطفى عبدالرازق إلى التصوف من هذا الوجه نعنى بوصفه المثل الأخلاقى الإسلامى الأعلى ، ترتد إلى حرص الصوفية على توقى كل الأوصاف المذمومة فى علاقاتهم مع الحق والخلق ، بل إنهم زادوا كمالات أخرى بغية الوصول بأعمالهم إلى أقصى الدرجات فى الصدق وإخلاص القصد لله تعالى ومصنفات شيوخهم فى تلك الفترة دالة على ذلك . ومن ثم فقد حق لأستاذنا الدكتور توفيق الطويل أن يؤكد بقوة على مقالة شيخه مصطفى عبدالرازق بقوله : " ويكاد لا يخطئ من يقول أن فلسفة الأخلاق قد نبتت فى ظل التصـــوف ونمت بجهود أهله الذين عبروا بحياتهم عن المثل الأخلاقى الأعلى وفلسفوه بتأويلاتهم للتجربة التى عاشوها[3] .

فالتصـــوف إذن منظورا إليه بهذا الوجه يصبح علما إسلاميا أصيلا ، ذلك لأن جل الفضائل الخلقية الإسلامية هى التى صارت مدارا

---

(1) السلمى : طبقات الصوفية - تحقيق نور الدين شريبه - مكتبة الخانجى 1969م ص 167 .

(2) السهروردى البغدادى : عوارف المعارف ص 15 .

(3) توفيق الطويل (الأستاذ الدكتور) : فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها - دار النهضة العربية - القاهرة - الطبعة الثالثة 1976م ص 58 .

عند الصوفية فيما بعد بما يعرف بمقامات الطريق إلى الله تعالى . بل ولا تخرج تلك المقامات والأحوال بدورها عما يحبه الله . ولهذا فكلها مأمور بها لضرورتها فى كمال العبادة لله تعالى كما دلت على هذا النصوص القرآنية والحديثية . واستيفاء العبد لها فى كل أحواله مع الحق والخلق كفيل بأن يرفعه إلى مرتبة عالية فى الكمال الروحى والخلقى . ومن هذه الحيثية كان التصوف هو العلم الذى يصور الخلق الإسلامى عند ابن القيم (ت751هـ) فقد اجتمعت كلمة الناطقين فيه على أن التصوف هو الخلق[1]. والدين كله خلق ويزيد ابن القيم الأمر تأكيدا فيجعل الأدب هو الدين كله[2] .

وبهذا يصبح التصوف تطبيقا مثاليا للدين فى جانبه الخلقى . وتلك مسألة مهمة فى رأينا ، إذ الدين لا ينفك عن الأخلاق بل إن حقيقته كما يقول ابن تيميه (ت728هـ) من الأمور الباطنة . ودين الإسلام فى عبادته كما يقول ابن تيميه أيضا لا تنفصل فيه أعمال القلوب عن أعمال الجوارح الظاهرة[3] . فإذا تبينا أن الأعمال الباطنة والتى هى حقيقة الدين كلها أمور مأمور بها فى حق العامة والخاصة ، لأنها من أصول الإيمان وقواعده[4] . أدركنا على الفور البعد الأخلاقى للدين من ناحية وعناية

---

(1) ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين – دار التراث العربى للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الأولى 1982م ج2 ص 225-228 .

(2) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ج2 ص 286.

(3) ابن تيمـــيه : التحفة العراقية فى الأعمال القلبية – تحقيق قصى محيى الدين الخطيب – المكتبة السلفية القاهرة 1399هـ ص 38 .

(4) ابن تيمـــيه : المصدر السابق ص37 .

التصوف بضرورة تحقيق هذا البعد من ناحية أخرى ، لأن الدين على وجه الدقة لابد أن يتحقق فى النفوس وفى أعمال القلوب وفى الحياة وتجاربها الروحية[1] . وتحقيق الدين على هذا النحو هو منتهى الكمال لأن الطـقوس الدينية ليست غاية فى ذاتها بل وسيلة وينبغى كما يقول فلاسفة الدين أن تكون كذلك لتلائم تحقيق الغايات الدينية[2] .

فإذا كان حد الدين على هذا النحو ، فلا نزاع فى أن التصوف إذن تحقيق للمثل العليا التى جاء بها دين الإسلام . ومن ثم يصبح تعبيرا حقيقيا عن المثل الأخلاقى الأعلى ، والذى يتعين على المسلم تحقيقه فى كل معاملاته ومراعاته فى كل تصرفاته . وقناعة شيخنا بهذه الفكرة تبتدى فى ضغطه على هذا البعد الأخلاقى فى التصوف ، ومن أجل هذا يقطع برأيه فى غير مواربة ، فيؤكد على أن الصوفية هم بناة المثل الأعلى للأخلاق الإسلامية[3] . وتلك إشارة لطيفة من شيخنا تذكرنا بإشارة أستاذه الإمام محمد عبده إذ لما سأله محمد رشيد رضا (ت1935م) عن الصوفية وأخلاقهم قال له الأستاذ الإمام أنه لم يوجد فى أمة من الأمم من يضاهى الصوفية فى علم الأخلاق وتربية النفوس[4] .

---

(1) بوترو (إميل) :العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة – ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى – الهيئة المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة 1973م ص 176 .

(2) بوترو (إميل) :العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة ص245 .

(3) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 356 .

(4) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ص 928 .

فإذا عدنا لشيخنا مصطفى عبدالرازق مرة أخرى وتبينا أن الكمال الروحى فى العبادة عنده لا ينفصل عن الكمال الخلقى فى الإسلام ، وأن كمالها – العبادة – وضرورة تحقيقها على هذا النحو يستوى فيه الرجال والنساء ، وجدناه يعطى نصيبا للنساء أيضا فى توكيد هذا الجانب الخلقى الذى وسم التصوف ، ولهذا فلا عجب حين يؤكد شيخنا على أن للمرأة حظا غير منقوص فى تشييد هذا الهيكل العظيم – التصوف – فى جانبه الأخلاقى – وذلك لأننا نجد فى كتب التصوف والأخلاق ذكرا لمتصوفات سيرتهن شاهد ومثل يحتذى[1] . وليس لأحد أن يقلل من أخلاق الصوفية بوصفها ضربا من المثالية ، وعلى نحو ما أكده شيخنا مصطفى عبدالرازق ما دام الدين فى حقيقته لا ينفصل عن الأخلاق بل هو الخلق كما يقول ابن القيم[2] .

ولهذا كان الدين أيضا هو الجانب المثالى فى الحياة الإنسانية كما يقول بعض فلاسفة الدين[3] . وعلى ضوء هذا التعريف للدين إذن تبدو وجاهة الفكرة التى أكدها شيخنا مصطفى عبدالرازق من قبل لما جعل التصوف هو العلم الذى يصور المثل الأخلاقى الأعلى . وهو عين ما أكده تلميذه الدكتور توفيق الطويل كما تقدم . بل إن هذا المفهوم الذى خلعه

---

(1) مصطفى عبدالرازق : التعليق على مادة التصوف ص 357.

(2) ابن قيم الجوزيه : مدارج السالكين ج2 ص 228 ، وأيضا التمكين فى شرح منازل السائرين – لأبى الفيض المنوفى – دار نهضة مصر – القاهرة 1969م ص 141 .

(3) محمد دراز (الأستاذ الدكتور) : الدين – بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان – دار العلم – الكويت 1990 م ص 36 .

شيخنا على التصوف وجعله خصيصته وفاعليته هو الذى يرتضيه أئمة الصوفية " إذ التصوف كما يقول أستاذنا التفتازانى ليس نظريات نفسية أو أخلاقية أو ميتافيزيقية بقدر ما هو طريقة فى الحياة ورياضة عملية تمارس من أجل هدف معين هو تحقيق الكمال الأخلاقى الذى دعا إليه الإسلام[1].

فالتصوف إذن عند شيخنا مصطفى عبدالرازق يمثل الأخلاق الإسلامية المثالية ، وبذلك يصبح ضرورة وسيلة ففعالة فى تربية النفوس أخلاقيا ، ولأجل هذا كان لشيوخه فضل تهذيب نفوس العامة بل والخاصة ممن التفوا حولهم بوصفهم أدلاء على الطريق ، وكان لهؤلاء الشيوخ الفضل فى تقويم السلوك بما أشاعوه فى نفوسهم من فضائل وبما تحلوا به من فضائل فى سلوكهم مع الخلق .

وقناعة شيخنا بهذا الجانب - التربية الخلقية - بوصفها نسيج التصوف كعلم للأخلاق الإسلامية تتجلى فيما سجله عن أستاذه الإمام محمد عبده ، وما تركه الشيخ درويش خضر خال أبيه من أثر فى سلوكه إذ يقول " ... ولا ينكر أثر الشيخ درويش بتربيته الصوفية فى نفس أستاذنا ، فإن ذلك الشيخ الصوفى وجه كل عواطف الشباب فى نفس الفتى إلى اللذائذ القدسية لذات العارفين ..."[2] .

---

(1) التفتازانى (الأستاذ الدكتور أبوالوفا) : الطرق الصوفية فى مصر - بحث منشور فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة - المجلد الخامس والعشرون 1963 م ص 55 .

(2) مصطفى عبدالرازق : محمد عبده ص 27

ودلالة قول شيخنا تكمن فى رأينا فى قناعته بما يمكن أن يقوم به التصوف فى تقويم الأخلاق وإصلاح النفوس . وهذا هو الذى فعله الشيخ درويش بوصفه صوفيا فى أخلاق الإمام محمد عبده فقد كان هذا الشيخ كما يقول له أثر عظيم فى تربية أستاذه بشهادته رحمة الله عليه كما يقول شيخنا وإن كان ليس بين أيدينا كما يقول بيان عن هذا الشيخ نستطيع أن نفهم بالتفصيل أحواله النفسية ، وأن نتبين كيفية سلطانه على نفس مريده تلك النفس القوية الحرة[1] .

المهم فى هذا القول الذى أوردناه آنفا لشيخنا مصطفى عبدالرازق هو بيان الأثر الذى يمكن أن يلعبه الصوفى الصادق فى أخلاق من حوله . فهو قادر على أن يؤثر فيهم بما يجدون فيه من شمائل الأخلاق وبما يجذبهم إليه بقدرته على الإرشاد النفسى الهادئ فى نفوس من يلتفون حوله.

ولئن كان هذا الصنف من الصوفية نادرا فى رأينا الآن بل وكما يرى شيخنا مصطفى عبدالرازق ، إلا أن تأثيره فى النفوس لا يمكن التقليل من شأنه يدلنا على هذا قوله " .. غير أن الذى رواه الأستاذ الإمام من حال شيخه يدل على أنه كان رجلا ساذجا نير البصيرة طيب القلب سمحا سهلا مؤمنا يقوى إيمانه بتفهم القرآن وبضروب سهلة من العبادة والرياضة وأمثال هذا الشيخ شذوذا بين الأعداد الكثيرة من رجال الطرق

---

(1) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 32 .

ويكون لهم أثر روحى فى المستعدين من مريديهم بما فى نفوسهم من صفاء وما فى إيمانهم من قوة ليست مستمدة من ناحية علمية[1] .

وقول شيخنا إشارة مهمة للدور الذى يمكن أن يحققه الصوفى الحقيقى فى توجيه وتقويم نفوس ذوى الأخلاق الفاسدة فى مجتمعه ، وفى الارتقاء بها إلى أعلى مدارج الكمال الخلقى وأكثر من ذلك فلربما تؤتى التربية الصوفية أكلها فى خلق المستعدين للكمال أكثر من غيرهم وهذا بالفعل ما أحدثه الشيخ درويش فى خلق محمد عبده فقد بلغت فيه طيبة النفس إلى درجة تكاد تكون غير محدودة . فقد كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه ويسعى إلى كل من نفع للغير عام أو خاص وكان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقا ، وأن التسامح والعفو عن كل شىء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى إصلاح فاعله[2] .

لهذا لا نعجب حين يلح شيخنا مصطفى عبدالرازق على أن الصوفية هم بناة المثل الأخلاقى الأعلى فى الإسلام ، إذ يمكن من خلال هذا الدور الأخلاقى للتصوف إشاعة الفضائل والمثل العليا والقيم الروحية بين أفراد المجتمـــع بل القضاء على كثير من الرذائل التى تتفشى فى السلوك ، وفى هذا تحقيق لخير الفرد المسلم وكذلك الجماعة بطبيعة الحال.

---

(1) مصطفى عبدالرازق : محمد عبده ص 32.

(2) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 28 .

ومن هذا الوجه بالذات فإن التربية الخلقية والروحية لا تقل فى قيمتها ولا فى خطرها وأهميتها عن التربية الجمالية للإنسان ، فكلاهما معا يمثلان ضرورة فى الارتقاء بالإنسان نلمح ذلك صراحة فى قول مصطفى عبدالرازق " .. وإذا كانت التربية الحديثة تدعو إلى تهذيب الأذواق بفنون الجمال الحسى فإن التربية الصوفية تدعو إلى تلطيف السر بأنواع الرياضة"[1] .

ويلوح لى أن هذا الدور هو الذى ينبغى أن يظل عليه التصوف لتظل له خصوصيته الإسلامية ومن ثم أراه هو التصوف المعتدل الذى يثمر صلاحا فى النفوس ، ولا يجعل من التصوف إماتة لكل القوى التى وهبها الله للإنسان وبالتالى يصبح التصوف تعبيرا عن روحانية الإسلام بغير إفراط ولا تفريط .

ويبدو أن هذا هو مطلوب التصوف كذلك عند مصطفى عبدالرازق يدلنا على هذا ما ينقله عن ابن سينا فى الإشارات فإن مما يعين على تحقيق الغرض من الرياضة عدة أشياء العبادة المشفوعة بالفكرة ثم الألحان المستخدمة لقوى النفس لما لحن فيها من الكلام موقع القبول من الأوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من عقل زكى بعبارة بليغة ونغمة رخيصة وسمت رشيد ، يعين على تلطيف السر الفكر اللطيف والعشق العفيف الذى تأمر فيه شمائل المعشوق لا سلطان الشهوة[2] .

---

(1) مصطفى عبدالرازق : المصدر السابق ص 27 .

(2) مصطفى عبدالرازق : محمد عبده ص 27 .

أوردت هذا النص بأكمله لدلالته على مفهوم التصوف ومراميه كما يقبله مصطفى عبدالرازق ، لأن الحاصل من هذا المفهوم لا يجعل التصوف كفا للإنسان عن التمتع بالطيبات بقدر ما يرمى إلى تهذيب النفس وتربية الوجدان وبما يحقق للإنسان إنسانيته ويشده فى ذات الوقت إلى الملأ الأعلى بحكم جمعيته – الإنسان – للجانبين معا البدن والروح . وفى هذه الحالة فإن من شأن التعاليم الصوفية وكما يرى شيخنا أن تربى الوجدان وتلطف السر وتجمل النفس وتزينها ولا جرم كان الشيخ عبده صوفى الأخلاق من هذا الوجه على حد قوله[1] .

والحق الذى لا مراء فيه أن التصوف بهذا المفهوم الخلقى عند شيخنا مصطفى عبدالرازق هو الذى ارتضاه أستاذه الإمام محمد عبده ، بل وأغلب المصلحين المحدثين والمعاصرين ، لأنه لا غبار عليه ولا غضاضة فيه على الإطلاق ، وليس أدل على هذا من أن الإمام محمد عبده وإن حارب المبتدعين من صوفية عصره ، لكنه فى ذات الوقت لم يغفل عن قيمة التصوف فى جانبه الخلقى والتربوى ، فهو عنده تهذيب لأخلاق العامة وتقويم عاداتها وترويض النفوس بأعمال الدين[2].

ولعل ما سبق يؤكد على فكرة مهمة عند شيخنا مصطفى عبدالرازق ، وهى داخلة فى نسيج الدين بوصفه عقيدة وشريعة ، إذ الشريعة هنا وبما يتلازم معها من العبادات والأعمال وإن كانت مطلوبة

---

(1) مصطفى عبدالرازق: المصدر السابق ص 28 .

(2) عثمان أمين (الدكتور) : رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – الطبعة الثانية 1969 ص 201 .

على مستوى الجوارح الظاهرة ، إلا أن كمالها أيضا لابد من تحقيقه فى الجوارح الباطنة ، لأن الأعمال الدينية لا يكون لها اعتبار فى دين الإسلام بحسب صورها الظاهرة كما يقول شيخنا مصطفى عبدالرازق ، وإنما هى معتبرة بالنيات والهيئات النفسانية التى هى مصدرها[1] . ويستشهد شيخنا على هذا بقوله تعالى : "**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**"[2] . بل إن هناك حديثا للرسول صلى الله عليه وسلم يجعل فيه الأعمال بالنيات وأن لكل امرئ ما نوى ، وهو حديث كما قال الشافعى وأحمد - كما يذكر شيخنا - يدخل فيه ثلث العلم[3] . وعلى هذا فقد دل الحديث كما دلت الآية من قبل على أن المحك هو النية أو إخلاص القصد فى صحة العمل وبطلانه ، وكما فهم شيخنا وهذا أمر ينبغى أن يتحقق به المرء مع الحق والخلق ، ومن هنا فقد حق القول فى رأينا مع بعض الصوفية أن من لا إخلاص له فلا خلاص على أى وجه كان[4] .

فالتصوف فى نقائه إذن له فاعليته فى تقويم الأخلاق وتهذيبها والارتقاء بها . وهو الأمر الذى دعانا إليه الدين من التحلى بمكارم

---

(1) مصطفى عبدالرازق : الدين والوحى والإسلام - طبعة دار المعارف - القاهرة 1945 ص 32 .

(2) سورة الحج : الآية 32 .

(3) انظر صحيح البخارى - طبعة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة - بدون تاريخ - المجلد الثالث ص238

(4) الميهنى : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ص 329 .

الأخلاق واجتناب سفاسفها . وهو ما يمكن أن ينهض بتحقيقه التصوف ، لأن الأعمال الدينية كما يقول الإمام محمد عبده إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وأن الروح هى السلطان القاهر على البدن[1] . ومن هذا الوجه بالذات آمن الإمام محمد عبده بالدور الذى يمكن أن يلعبه التصوف الحقيقى فى التوجيه الأخلاقى فى المجتمع . فقد قال ذات يوم لتلميذه رشيد رضا (ت 1935م) "إذا يئست من إصلاح الأزهر فإننى أنتقى عشرة من طلبة العلم واجعل لهم مكانا عندى فى عين شمس أربيهم فيه تربية صوفية مع إكمال تعليمهم وأستعين بك - رشيد رضا - على ذلك.."[2] .

وعلى نفس الدرج سار شيخنا مصطفى عبدالرازق فى هذا الفهم المعتدل للتصوف ، فارتضاه فى المقام الأول علما للأخلاق الإسلامية فى أعلى صورة لها نعنى المثالية فى التطبيق . فليس التصوف عنده شطحا ولا تجديفا كما وقع فيه بعض الغلاة من الصوفية قديما وكما يصوره كثير من العامة بأفاعيلهم الممسوخة فى وقتنا هذا وبسببهم يحاكم التصوف بحق وبغير حق . بعد أن صار الكلام فى الدين مستباحا للبعض بفهم منقوص تارة ومغلوط تارة أخرى ولأجل هذا فالتصوف المقبول هو الذى يحقق أخلاق الإسلام وهو الذى يتعين أن يكون عليه التصوف ليظل له خصوصيته بما يناسب الإسلام عقيدة وشريعة فى آن واحد .

---

(1) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية - تقديم ودراسة أستاذنا الدكتور عاطف العراقى - دار سينا للنشر - القاهرة 1987 ص 50 .

(2) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام - الجزء الأول ص 130 .

ولهذا فلم يكن غريبا أن يكون هذا هو جوهر التصوف عند شيخنا فالتصوف نشأ معبرا عن المثل الدينى الأعلى وظل فى أدواره كلها يعبر عن ذلك مخالفا ما عليه العامة مخالفا القراء والفقهاء وأهل السنة والمتكلمين والمتفلسفين متعرضا لعداوتهم واضطهاداتهم من غير أن تخرجه العدوات والاضطهادات عن حدود الحب والتسامح[1] .

ويبدو أن نزعة التسامح الذى وسمت أخلاق الصوفية هى التى لزمتهم فى كل أدوار نمو هذا العلم فى الحياة الإسلامية . وبالرغم مما لقيه الصوفية من اضطهاد وإساءة فهم فى مقاصدهم وأذواقهم من جانب الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة إلا أن هذا التسامح ظل خصوصية لهم دون أن يبادلوا هذه المذاهب التجريح والتشويه إلا فيما ندر[2] . ولذلك أصاب شيخنا مصطفى عبدالرازق لما قال : " فالتصوف كان وحده من بين معترك المذاهب تسامحا صرفا وسلاما فى كل ما مر به من الأدوار ، فالصوفى كما يقول أبو تراب النجشى لا يكدره شىء ويصفو به كل شىء[3] .

---

(1) مصطفى عبدالرازق :التعليق على مادة التصوف ص 347 .

(2) يمكن الرجوع فى هذا الصدد إلى ما كتبه ابن الجوزى وابن قدامه وبرهان الدين البقاعى وبعض مما كتبه ابن تيميه وابن القيم ومحمد عبدالوهاب وغيرهم مع الأخذ فى الاعتبار أن بعض الصوفية قد بادلوا الفقهاء والمتكلمين فيما أخذوه عليهم ولكن دون تجريح وربما كان هذا الجانب موجودا لدى المتأخرين .

(3) مصطفى عبدالرازق :التعليق على مادة التصوف ص 120.

ويلوح لى أن هذه النزعة – التسامح – تمثل خلقا رفيعا من أخلاق الصوفية وتبدو متوافقة بل أقول متناغمة مع أخلاق شيخنا مصطفى عبدالرازق ومن هنا كانت إشارته اللطيفة إلى أن هذا الخلق الرفيع وقد وسم الصوفية فى كل عصورها . ودليلنا على هذا قوله : " أنا من أولئك الذين يكرهون الحروب ويريدون للبشر رقيا منتظما فى ظل السلام والحرية ، وآلم شىء لقلبى أن يفترس الإنسان كما تفترس الوحوش فى البيداء[1] .

الأمر الذى يعنى أن شيخنا لا يرى فى اختلاف الرأى بين الناس سببا للفرقة والتنابذ والبغضاء والتطاحن بين الناس بسبب الأفكار والمعتقدات ، وربما لهذا السبب كان حبه للصوفية إذ لم يبادلوا غيرهم العداوة ولا البغضاء بالبغضاء رغم ما تعرضوا له من صور الاضطهاد حتى لقى بعضهم حتفه . ولعل ذلك راجع إلى غموض ألفاظهم وإشاراتهم ، وما توهمه ظواهرها من الضلال والزيغ[2] .

ولئن كان التسامح خلقا رفيعا عند الصوفية ، قد تحقق فى شخصية شيخنا مصطفى عبدالرازق ، فإنا نرى أخلاقا نابضة بتعاليم الصوفية الأخلاقية تتجلى بقوة فى شخصيته وقد انعكست ولاشك فى معاملاته مع الناس . فقد كان يمتلك ضميرا يحاسب به نفسه فى كل أفعالها ويزن به سلوكه على الدوام فى ذات الوقت الذى يملك من الحياء بقدر ما يملك من التسامح . ولعلنا نظفر بذلك كله من قوله : " .. أنا

---

(1) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 120 .
(2) مصطفى عبدالرازق : مقدمة كتاب ابن الفارض والحب الإلهى للدكتور مصطفى حلمى – دار المعارف – القاهرة 1971 ص 7 .

بالرغم من كونى عصبيا سريع التأثر ، فإننى قادر على كتمان إحساسى لذلك يفر الناس منى منظر هادئ وفم ضنين بالابتسام وحلم قلما يستفزه غضب ، ولو كشف للناس باطن أمرى لرأوا فؤادا قلقا وضميرا يراقب حركات النفس ويحاسبها حسابا عسيرا وإحساسا يضطرب لكل ما يهز إحساس الناس هزا لينا ... أنا حى مفرط فى الحياء .. "[1] .

إن هذا النص يضعنا بما جاء فيه من أوصاف لشيخنا وإن جاءت على لسانه أمام شخصية تتجلى فيها قسمات الأخلاق الصوفية الرفيعة فى أسمى صورها من محاسبة للنفس فى كل أفعالها ، ومشاركة للغير فى ملماته ونكباته ، ومن كظم للغيظ وحلم مع الغير ، ولا غرو فكلها من أخلاق الصوفية فى رأينا فمن أحسن أخلاقه الصوفية كما يقول السهروردى (ت 632هـ) التواضع ، ومن أخلاقهم الإيثار والمواساة ، والعفو ومعاملة السيئة بالحسنة ، والسخاء والجود والبشر وطلاقة الوجه فى مقابلة الناس ، واعتماد الرفق والحلم[2] .

ولعل فى شهادة معاصريه ما يعضد هذا ويزيده تأكيداً فلقد كان مصطفى عبدالرازق كما يقول عنه الدكتور طه حسين " سمحا فى جميع أطواره وفى أطوار من حوله من الناس وما يحيط به من الظروف ، وكانت الابتسامة الحلوة أدل شىء عليه[3] . وكان البر من لوازم

---

(1) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 498 .

(2) السهروردى البغدادى : عوارف المعارف ص 239 وما بعدها وص254 ، ص264 وما بعدها .

(3) طه حسين (الدكتور) : مقدمة كتاب من آثار على عبدالرازق ص. ك

أخلاقه ، فلم أعرف قط قلبا أبر بفقير ولا نفسا أرق حاجة ولا يد أسرع إلى العطاء من قلب مصطفى عبدالرازق ونفسه ويده[1] .

ويبدو لى أن تلك الخصال والأخلاق الرفيعة قد لزمته منذ أن كان صغيرا ، فقد كان كما يقول أخوه لا يحب الأذى ولا العنف ، وكان خلقه الحياء ، والحياء خير كله[2] . ولكن الذى لا شك فيه أن التربية الدينية على صحيح الدين وتعاليمه السمحة هى التى عملت عملها فى أخلاق شيخنا مصطفى عبدالرازق فلقد كان صبيا مباركا تلوح فى أعماقه بواكير الإيمان الساذج الصافى الذى هو ثمرة ما ركب فى طبعه من صفات وملكات[3] . وإن كان فى تدينه وصدق إيمانه كما يقول أخوه كان يتأثر بطريقة المرحوم الوالد ويقتفى أثره[4] .

ولكن الذى لاشك فيه أن أثرا صوفيا أيضا لا خفاء فيه من شخصية الإمام محمد عبده وأخلاقه الرفيعة قد عمل عمله فى اعتقادى فى تزكية هذه الأخلاق الصوفية عند شيخنا مصطفى عبدالرازق فقد كان إعجابه بالمرحوم الشيخ محمد عبده كما يقول أخوه قد بلغ الغاية بل أنه قد جاوز الغاية على حد قوله[5] .

---

(1) طه حسين (الدكتور) : مقدمة كتاب من آثار على عبدالرازق ص. ك.

(2) على عبدالرازق : من آثار مصطفى عبدالرازق ص 2 .

(3) على عبدالرازق : المصدر السابق ص 20 .

(4) على عبدالرازق : المصدر السابق نفس الصفحة

(5) على عبدالرازق : المصدر السابق ص 31 .

وليس ببعيد أيضا تأثير شيوخ مصطفى عبدالرازق عليه فى هذه الناحية ، خاصة إبان مرحلته الأولى فى التعليم الأزهرى ومن هؤلاء أيضا الشيخ بسيونى عسل فقد كان أول أساتذته فى الفقه فقد كان من أهل الصلاح والتصوف وقد أحبه مصطفى عبدالرازق وتأثر به ، حتى أنه كما يذكر شقيقه قد زاره فى منزله يلتمس بركته ودعاءه قبل اليوم الذين عين لامتحانه فى الشهادة العالمية فى الأزهر وقد احتفى به الأستاذ ودعا له ، وأوصاه بزيارة مقام الشيخ الدردير ى !! كما يفعل عامة المتقدمين فى الامتحان ففعل[1] . ومنهم الشيخ محمد عبده فقد كان أستاذه فى علم النحو وكان عالما ذكيا ورجلا صالحا لا يبالى بالمظاهر . ومنهم كذلك الشيخ الغرينى فقد كان من أهل التدين والصلاح الذين تغلب عليهم سلامة القلب وبساطة النفس[2] .

ولا شك أن جماع كل تلك الأوصاف هى عين الأخلاق الصوفية الحقيقية . فلا غرو إذن كان شيخنا مصطفى عبدالرازق صوفيا بأخلاقه ومعاملاته مع الناس جميعا وفيما بينه وبين الله تعالى . وبغير حاجة إلى الانقطاع تماما للعبادة وترك الدنيا بكليتها أو الانصراف عن المشاركة فى شئون الحياة ومناشطها الإنسانية . فليس ذلك من تصوف الإسلام فى شىء.

فالصوفية الإسلامية هى التى ترقى بالإنسان فى سلوكه وتحقق له التوازن بين مطالب الروح ومطالب البدن وهذا الأمر هو الذى وجد قبولا

---

(1) على عبدالرازق : المصدر السابق ص 29.

(2) على عبدالرازق : المصدر السابق ص 29.

من شيخنا مصطفى عبدالرازق . وفى اعتقادى أننا أحوج إلى الصوفية من هذا الوجه بالذات ولا سواه لتحقيق التوازن للشخصية المسلمة فى حياتنا المعاصرة إذ التقدم المادى الراهن الذى يلف حضارة عصرنا يجعلنا فى حاجة ماسة لهذا التوازن الروحى ، لأن التقدم المادى لحضارة العصر أكبر بكثير من تقدمها الروحى[1] .

وبذلك نصل إلى خاتمة المطاف فى بحثنا ويتعين أن نبرز فيها مجموعة من الحقائق نجملها فيما يلى :-

أولاً: أن شيخنا مصطفى عبدالرازق قد جعل التصوف قسما من أقسام الفلسفة الإسلامية شأنه شأن علمى الكلام والفلسفة وأصول الفقه عنده . لكن ذلك ليس هو المهم وإنما الأهم أن التصوف منظوراً إليه فى هذه المنظومة الفكرية يمثل علما أصيلا للأخلاق الإسلامية فى أنصح صورها . ولقد آمن شيخنا بفاعلية هذه الأخلاق بوصفها تجليا للصوفية ،وأدرك قيمتها فى تزكية النفوس وتقويم السلوك ، وإن كان ذلك مشروطا بخلاص الصوفية المعاصرة من الدجالين والمرتزقة باسم التصوف . وتلك مسئولية رجاله بطبيعة الحال تصحيحا لصورة التصوف ليظل موافقا فى صورته ومبناه للإسلام الحنيف عقيدة وشريعة ، ولعمرى إنها لمسئولية جد خطيرة لو يعلمون !!!

---

(1) اشفتيسر (البرت) : فلسفة الحضارة ص 107 .

ثانيـــاً : أن موقف شيخنا مصطفى عبدالرازق من التصوف بهذا المفهوم – الخلقى – وغيره من المفاهيم الأخرى التى أشرنا إليها فى تضاعيف البحث يمثل الرؤية الحقيقية للتصوف الإيجابى الذى يلائم مشرب الإسلام عقيدة وشريعة ونظرة شيخنا هى امتداد للرؤية التى قدم شيئا منها ابن تيميه (ت 728هـ) وزادها وضوحا ابن القيم (ت751هـ) ثم أخذت شكلا جديدا عند الإمام محمد عبده (ت 1905م) ومحمد رشيد رضا (ت1935م) ومحمد إقبال (ت1938م) وغيرهم من المصلحين والمجددين المعاصرين ممن أشرنا إليهم فى تضاعيف هذا البحث .

ثالثاً : أن رؤية شيخنا مصطفى عبدالرازق للولاية وهى أعلى المراتب الروحية لا تنال بالعبادة القاسية أو الفناء عن النفس وما شاكل ذلك عند غـــلاة الصوفيـــة . بل هى –الولاية – لا تعدو أكثر من القرب الذى يناله المؤمن بكمال الإخلاص وصدق الإرادة مع الله فى كل أحوال العبد مع الله وفى معاملاته مع الخلق . وعلى ضوء هذا التصور الصحيح فهى حق متاح للرجل والمرأة ، ولا تعنى بطبيعة الحال الانسحاب من الحياة ومباشرة شئونها . فليست الولاية أو التصوف أثمالا بالية وأذكارا بأصوات عالية وما يصاحبه – الذكر – من رقص مما يحدث فى الموالد على يد أتباع الصوفية فهذا مالم يقبله شيخنا وهذا مالم يقبله شيوخ الصوفية ولا أمروا به كما أثبتنا من قبل .

رابعا: أن شيخنا كان شديد النكير على كثير من البدع الفاسدة التى تفسد صفاء العقيدة فى العقول والقلوب كالغلو فى مسألة الكرامات والتوسل بالأولياء فى أثناء الكربات وهو موقف متوقع منه بوصفه مصلحا دينيا مستنيرا يمضى فى الدرج الذى رسمه أستاذه وشيخه الإمام محمد عبده . بل وأقول والفقهاء الذين يمثلون رؤية الإسلام الصحيح دون متاجرة بالدين ، وهو موقف يرتد بجذوره إلى مواقف بعض الفقهاء الأقدمين وكما ألمحنا إليه فى صدر البحث وأثبتناه فى الوقت نفسه فى كثير من مواضعه .

خامسا: أن رؤية شيخنا للتصوف رؤية واعية فهو عنده وسيلة للتربية الروحية والخلقية على وجه التحديد . لأنه يحقق كمال الإنسان من حيث هو مركب من روح وبدن ، ولهذا فلا ضير أن يتحقق هذا الكمال بالتربية الصوفية بل ولا ضير أن يتلازم معها أيضا التربية الجمالية فتلك بدورها ضرورة للارتقاء بالوجدان الإنسانى وبهذا الفهم المستنير من جانب شيخنا يصبح التصوف المعتدل هو الذى يحفظ للإنسان توازنه حين يعمل - الإنسان - ويجد ويستمتع بمباهج الحياة ، ويعلو ويرتقى بروحه إلى أعلى درجات الكمال الروحى وفى الحالتين معا ، يظل التصوف أو ينبغى أن يظل انعكاسا لوسطية دين الإسلام بغير إفراط ولا تفريط .

ثبت المصادر والمراجع

رتبت المصادر والمراجع لهذا الفصل حسب الكنية ترتيباً حسب حروف المعجم مع حذف كلمات أب – ابن – أداة التعريف ، فلزم التنويه

أولاً : مؤلفات الشيخ مصطفى عبدالرازق وإنتجه الفكرى :

1- الدين والوحى والإسلام – طبعة دار إحياء الكتب العربية – القاهرة 1364هـ/1945م .

2- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – الطبعة الثانية 1379هـ / 1959م .

3- مجموعة مقالات متنوعة نشرها شقيقه الأستاذ على عبدالرازق وقدم لها بمقدمة طويلة عن حياته – تصدير الأستاذ الدكتور طه حسين بعنوان من آثار مصطفى عبدالرازق – طبعة دار المعارف القاهرة – 1957م .

4- الصـــوفية والفرق الإسلامية – بحث ألقى فى مؤتمر تاريخ الأديان – ليدن – 1932 –ونشره الأستاذ الدكتور على سامى النشار ضمن تحقيقه لكتاب الرازى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – 1982م .

5- التعليق على مادة التصوف – بدائرة المعارف الإسلامية – المجلد التاسع – طبعة دار الشعب .

6- محمد عبده – دار المعارف – القاهرة – 1945م .

7- مقدمة كتاب ابن الفارض والحب الإلهى للأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى - دار المعارف - القاهرة - 1971م .

ثانياً : أهم المصادر والمراجع :

8- اشفيستر (البرت) : فلسفة الحضارة - ترجمة الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بدوى - مراجعة الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود- لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - 1963م.

9- أمين (الأستاذ الدكتور عثمان) : رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - الطبعة الثانية- 1969م .

10- أمين (الأستاذ الدكتور عثمان) : أعلام الفكر الإسلامى المعاصر - دار الثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة 1989م .

11- بطروشوفسكى : الإسلام فى إيران - ترجمة الأستاذ الدكتور/ السباعى محمد السباعى - دار الثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة - 1982م .

12- بوترو (اميل) : العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة - ترجمة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى - الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1973م .

13- البيهقى (أبو بكر أحمد : ت 458هـ) : الاعتقاد فى مذهب السلف أهل السنة والجماعة - مكتبة السلام العالمية - القاهرة.

14- القفتازانى (الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى) : الطرق الصوفية فى مصر - بحث منشور بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة- المجلد الخامس والعشرون - الجزء الثانى - 1962م .

15- ابن تيميه (ت 728هـ) : التحفة العراقية فى الأعمال القلبية - تحقيق قصى محب الدين بن الخطيب - المكتبة السلفية - القاهرة- الطبعة الثانية -1399هـ .

16- ابن الجوزى (ت 597هـ) : تلبيس إبليس - مكتبة النور الإسلامية - القاهرة - بدون تاريخ .

17- الجوينى (أبو المعالى ت 478هـ) : العقيدة النظامية - تحقيق وتقديم الدكتور أحمد السقا - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - 1979م .

18- الجيلانى (عبدالقادر ت 561هـ) : الفتح الربانى - طبعة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة 1979م .

19- حجاب (الشيخ أحمد محمد) : العظة والاعتبار- آراء فى حياة السيد البدوى الدنيوية وحياته البرزخية - القاهرة - بدون تاريخ .

20- ابن خلدون (ت808هـ) : المقدمة - طبعة دار الشعب - القاهرة بدون تاريخ .

21- دراز (الأستاذ الدكتور محمد عبدالله) : الدين - بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان - دار القلم - الكويت - 1990م .

22- الرازى (فخر الدين ت 606هـ) : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين - تحقيق الدكتور على سامى النشار - دار الكتب العلمية - بيروت 1982م .

23- رضا (محمد رشيد ت 1935م) : تاريخ الأستاذ الإمام - القاهرة- الطبعة الأولى 1931م .

24- الرفاعى (ت578هـ) : البرهان المؤيد - تقديم صلاح عزام - طبعة دار الشعب - القاهرة - 1971م .

25- الزمخشرى (ت538هـ) : أساس البلاغة - دار الكتب - القاهرة 1952م .

26- السهروردى البغدادى (ت632هـ) : عوارف المعارف - دار الكتاب العربى - بيروت - الطبعة الثانية 1983م .

27- طاهر (الأستاذ الدكتور حامد) : مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية - دار هجر للطباعة والنشر - القاهرة 1985 .

28- الطرازى (أبو المظفر) : الأخلاق فى الإسلام - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة - 1986م .

29- الطوسى (السراج ت 378هـ) : اللمع - تحقيق طه عبدالباقى سرور والدكتور عبدالحليم محمود - دار الكتب الحديثة - القاهرة- 1960م .

30- لطويل (الأستاذ الدكتور توفيق) : فلسفة الأخلاق "نشأتها وتطورها" - دار النهضة العربية - القاهرة - الطبعة الثانية - 1974م .

31- عبده (الأستاذ الإمام محمد) : الإسلام دين العلم والمدنية - مع مقدمة ودراسة للأستاذ الدكتور عاطف العراقى - دار سينا للنشر - القاهرة 1987م .

32- عبده (الأستاذ الإمام محمد ت 1905م) : رسالة التوحيد - مطبعة النصر - القاهرة 1969م .

33- عبده (الأستاذ الإمام محمد) : تفسير جزء عم - طبعة دار الشعب - القاهرة 1989م .

34- العراقى (الأستاذ الدكتور عاطف) : التسامح من منظور إنسانى تنويرى - بحث منشور فى الكتاب التذكارى بعنوان أبو الوفا التفتازانى أستاذاً للتصوف ومفكراً إسلامياً - دار الهداية - القاهرة -1995م .

35- ابن عطاء الله السكندرى (ت 709هـ) : لطائف المنن والأخلاق - تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود - القاهرة 1975م .

36- القشيرى (ت465هـ) : الرسالة - تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود - الدكتور محمود بن الشريف - دار الكتب الحديثة - القاهرة 1975م .

37- ابن قيم الجوزية (ت 751هـ) : مدارج السالكين - دار التراث العربى للطباعة والنشر - القاهرة - الطبعة الأولى 1982م .

38- محمود (الأستاذ الدكتور زكى نجيب ت 1993م) : تجديد الفكر العربى - دار الشروق - القاهرة - الطبعة التاسعة - 1993م .

39- ابن منظور (ت 630هـ) : لسان العرب - الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر - القاهرة - بدون تاريخ .

40- الهجويرى (ت 466هـ) : كشف المحجوب - تحقيق الدكتورة إسعاد قنديل - مراجعة الدكتور يحيى الخشاب - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - الطبعة الأولى 1975م .